14 me Année No. 695
Lundi — 28 — 10 — 1946

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما
الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات
الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

السنة الرابعة عشرة « القاهرة فى يوم الإثنين ٣ ذو الحجة سنة ١٣٦٥ — ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٤٦ » العــدد ٦٩٥

هــــذه هى الأغلال

للأســــتاذ عباس محمود العقاد

المسلمون فى حاجة إلى جرعات قوية من قبيل هذه الجرعة التى ناولهم إياها صاحب الفضيلة الأستاذ عبد الله على القصيمى فى كتابه « هذه هى الأغلال ».

لأن الذين يحجمون عن مساعى الحياة اعتقاداً منهم بتحريمها إنما يخرجهم فى هذا الوهم عاملان ضروريان ، وهما عظة الحوادث وعظة المرشدين ، وأحق الناس بإسداء هــذه العظة إليهم من يصححون لهم الوهم بأسناد من الكتاب والسنة النبوية ، ومن يرشدونهم لأنهم متدينون يفهمون الدين على وجهه المستقيم ، لا لأنهم ينكرون الأديان فلا يلتقون بهم فى أصل من أصولهم التى يتقبلون منها الحجة والدليل

والكتاب يحق كما وصفه مؤلفه الفاضل « ثورة فى فهم العقل والدين والحياة » لأنه يهجم على سلطان غشوم هو سلطان الجهل ، ومعقل حصين هو معقل العادة ، وجحفل مجر هو جحفل الغوغاء وأشباه الغوغاء ، فيرفع السيف والمعول بغير رهبة ولا هوادة ، ويعتمد سيفاً واحداً ومعولا واحداً فى هذه الثورة الجريئة ، وهما سيف اليقين ومعول البرهان.

فهو يشن الغارة الشعواء على من يقدسون البلاهة ويوجبون على الناس الكسل باسم الاتكال على الله ، ويحرمون تعليم المرأة وتدريبها على فرائض الأمومة والرعاية الاجتماعية ، ويوهنون ثقة الإنسان بنفسه ، وينكرون الحكمة القديمة والعلم الحديث ، ويزعمون أن الزمن يتأخر ولا يرجى فيه من أبناء اليوم والغد رجاء يضيفونه إلى تراث السلف ومآثر المتقدمين

وقد استند فى كثير من معارض النقد على آيات من الكتاب وأمثلة من سير الأنبياء ، وأسانيد من المنطق السليم ، ولم يبال بالسمعة الموروثة ولا بالأنصاب المرفوعة ولا بالأكاذيب المتواترة ، فهاجم أناساً يحسبون من الأئمة المقدسين عند العامة وأشباه العامة ، وذب عن فلاسفة غير مسلمين لم يشهدوا عهد الأديان الكتابية مثل أرسطو وأفلاطون

فلما روى هذه الأبيات :

من أنت يا رسـطو ومن ... أفلاط قبلك « يا مبلد »(١)
ما أنتمـــو إلا الفرا ... ش رأى السراج وقد توقد
فدنا فأحرق نفســـه ... ولو اهتدى رشـداً لأبعد

مهد لها قائلا إنهم « قالوها فى مذمة أولئك الرجال الذين حاولوا فى عصور سحيقة أن يضعوا اللبنات الأولى فى بنيان هذه الحضارة ... » . وعقب عليها مستنكراً أن يكون هؤلاء الرجال

(١) وقد رواها الأستاذ « يا مجدد »

الباحثون « حكمهم حينما أرادوا الدنو من المعرفة ومن العلم حكم الفراش الذى يرى النور المتوقد فيثب عليه »

ثم استطرد بعد صفحات فقال : « ومن البلاء حقاً أنهم لم يُقصروا عند امتداح الجهالة بل قاموا — ببلاهة كثيفة — يمتدحون الجنون والبله والبُله والمجانين ... وهنالك قسم كبير من الأولياء كُتبوا فى الطبقات يسمون بالمجاذيب أو بالأولياء المجاذيب ، وقد أورد الشعرانى فى كتابه طبقات الأولياء الكبرى أسماء طوائف كثيرة من هؤلاء المجذوبين . وكذلك صنع غيره »

أما الفصل الذى تناول فيه موضوع المرأة بعنوان : إنسان هى أم سلعة — فقد قابل به بين أقوال المتطرفين فى الحجر عليها وأقوال المتطرفين فى تخويلها حقوق العمل والحرية ، ووقف بين الطرفين وسطاً يعدل بين هؤلاء وهؤلاء ، ولكنى أحسبه لو خير بينهما لآثر الإطلاق على التكبيل بقيود الحجر والجمود

***

ونحن نوافق الأستاذ القصيمى على الهدف الذى يرمى إليه ، وعلى الآفة التى يشكو منها ، ولكننا نخالفه فى بعض الآراء كما نخالفه فى بعض العبارات ، ولا نخص منها بالذكر هنا إلا جانباً واحداً يلتبس فيه الرأى ويبدو فيه الظاهر على وجه غير وجهه الباطن ، أو وجهه الذى نطلع عليه بعد المراجعة والموازنة بين الحقائق المتقابلة . فرب حقيقة تقابلها حقيقة أكبر منها ، ورب ناحية نراها وحدها فإذا هى مستنكرة ، ونراها فى مكانها من مجموعة النواحى المختلفة ، فإذا هى لازمة لا غناء عنها

هذا الجانب الذى نخصه بالذكر فى هذا المقام هو كلام الأستاذ على فلسفة التصوف إذ يقول : « إن وجه الخطأ فى هذه الفلسفة أنهم اعتقدوا أن الروح والجسد عالمان مستقلان متعاديان ، وأن كلا منهما حرب للآخر ، وأن كلا منهما أيضاً إنما ينمو ويزكو على حساب الآخر . فإذا أهين أحدهما وعذب نما الآخر وترعرع وقام بوظيفته خير قيام ، وإذا أكرم وأريح وأجم أصاب الآخر بالعكس .. وهذه فلسفة عقيمة لا تقف أمام الحقائق . فإن الروح مهما اختلف فى حقيقتها وفى تفسيرها تزكو وتقوى وتقدر على أداء وظيفتها إذا صح الجسم وقوى واستراح ، وتضعف وتخبو وتعجز عن القيام بعملها إذا مرض الجسم أو تعب أو عجز ... وهذه حقيقة هى اليوم فوق مذاهب الشك ، وفى استطاعة الرجل المادى أن يعلم صدق هذا بالملاحظة والاستقراء .. » .

ونحن نقول إن هذه حقيقة لا شك فيها .

ولكننا نقول إنها ليست كل الحقيقة ، أوليست بالحقيقة التى تستغنى عن الرجوع بها إلى جملة الحقائق فى الملكات الروحية والجسدية .

ولعلنا نستعجل الغاية التى نرمى إليها بالإشارة إلى حقيقة أخرى مجسمة لا شك فيها . فما القول مثلا فى الإنسان الذى يقبل على الجسد وحده فيجعله أصلب من الفولاذ وأقدر على حمل الأثقال وجرها من الفرس والبعير ؟ أيقال إن هذا الإنسان قد زاد قوة الروح بزيادة قوة الجسد ؟ أيقال إنه مثل يحتذيه كل إنسان ولا يصيب الأمة نقص فى الملكات إذا اقتدى به كل فرد من أبنائها ؟

لا يقال ذلك ، ولا يقال مع ذلك إنه مثل ضار وخيم العاقبة على أبناء الأمة ، بل يقال إنه لازم ومطلوب ومعقول ، وأن « القصد الحيوى » فى تربية الإنسانية يسمح للرياضة البدنية أن تصطفى لها أفراداً من هذا الطراز ، ويسمح للرياضة الروحية أن تصطفى لها أفراداً من طراز آخر ، ولا تسمح لهذه ولا لتلك بتعميم حكمها على جميع الآحاد .

هذا « القصد الحيوى » هو الحقيقة الكبرى التى تقابل تلك الحقيقة المبسوطة فى كتاب الأستاذ .

فالملكات الإنسانية أكثر وأكبر من أن ينالها إنسان واحد .

ولكنها ينبغى أن تنال . فكيف يمكن أن تنال ؟

إنها لا تنال إلا بالتخصص والتوزيع ، ولا يتأتى هذا التخصص أو هذا التوزيع إذا سوينا بينها جميعاً فى التحصيل ، وألزمنا كل أحد أن تكون له أقساط منها جميعاً على حد سواء .

ولا يقتصر القول هنا على الملكات العقلية أو الروحية التى لا يسهل إحصاؤها ولا تحصيلها ، ولكننا نعم به هذه الملكات ومعها ملكات الحس والجسد ، وهى محدودة متقاربة فى جميع الناس .

فهذه الملكات الجسدية — فضلا عن الملكات العقلية والروحية — قابلة للنمو والمضاعفة إلى الحد الذى لا يخطر لنا على بال ولا نصدقه إلا إذا شهدناه

وقد رأينا ورأى معنا ألوف من أبناء هذا البلد رجلا أكتع يستخدم أصابع قدمه فى أشياء يعجز الكثيرون عن سنمها بأصابع اليدين : يكتب بها ويشعل عيدان الثقاب ويصنع بها القهوة ويصبها فى الأقداح ويشربها ويديرها على الحاضرين ، ويسلك الخيط فى سم الإبرة ويخيط الثوب الممزق ، ويوشك أن يصنع بالقدم كل ما يصنع باليمين أو باليسار .

ورأينا ورأى معنا ألوف من هذا البلد لاعبى البليارد فى المسابقات العامة يتسلمون العصا ثم لا يتركونها إلا بعد مائة وخمسين إصابة أو تزيد ، ولعلهم لا يتركونها إلا من تعب أو مجاملة للاعبين الآخرين ، وهم يوجهون بها الأكر إلى حيث يريدون ، ويرسلونها بين خطوط مرسومة لا تدخل الأكر فى بعضها ، ولا تحسب اللعبة إذا لم تدخل فى بعضها الآخر . بحيث لو قال لك قائل إن هؤلاء اللاعبين يجرون الأكر بسلك خفى لجاز لك أن تصدق ما يقول .

ورأينا من يقذف بالحربة على مسافات فتقع حيث شاء ، ورأينا من ينظر فى آثار الأقدام فيخرج منها أثراً واحداً بين عشرات ولو تمدد وضعه بين المئات ، ورأينا من يرمى بالأنشوطة فى الحبل الطويل فيطوق بها عنق الانسان أو الحيوان على مسافة أمتار .

هذه هى الملكات الجسدية المحدودة ، وهذه هى آماد الكمال الذى تبلغ إليه بالتخصص والمرانة والتوزيع .

فما القول إذا حكمنا على الناس جميعاً أن يكسبوا أعضاءهم ملكة من هذه الملكات ؟

إننا نخطىء بهذا أيما خطأ ونعطلهم به عن العمل المفيد .

ولكننا نخطىء كذلك كل الخطأ إذا عاقبنا إنساناً لأنه أتقن ملكة من هذه الملكات الجسدية ، ولو جار فى نفسه على ملكات أخرى يتقنها الآخرون .

فاذا كنا جاوزنا بالقوى الجسدية حدودها المعهودة بالمرانة والتخصيص فما الظن بالقوى الروحية أو العقلية وهى لا تتقارب فى الناس ولا تعرف الحدود .

وإذا كان طالب القوة الروحية يجور على جسده فلما ذا نلومه وننحى عليه ونحن لا نعاقب اللاعب إذا جار على روحه أو عقله فى سبيل إتقان لعبة أو تدريب عضو أو تزجية فراغ ؟

إذا لمنا من يجور على جسده لأنه يضر الناس إذا اقتدوا به أجمعين فمن واجبنا أن نلوم كل ذى ملكة وكل ذى عمل وكل ذى ملكة وكل ذى فن وكل ذى رأى من الآراء ... فما من واحد بين هؤلاء إلا وهو يضر الناس إذا اقتدوا به أجمعين .

ومما لا جدال فيه أن نوازع الجسد تحجب الفكر عن بعض الحقائق الاجتماعية فضلا عن الحقائق الكونية المصفاة .

ومما لا جدال فيه أن شواغل العيش وهموم الأسرة عائق عن بعض مطالب الاصلاح فى الحياة اليومية ، فضلا عن الحياة الإنسانية الباقية على مر الدهور .

ومما لا جدال فيه أن طالب القوة الروحية كطالب القوة البدنية له حق كحق المصارع ، والملاكم ، وحامل الأثقال فى استكمال ما يشاء من ملكات الإنسان ، ولسنا على حق إذا أخذنا عليه أنه جار على جسده أو لذات عيشه ، لأننا لا نلوم المصارع إذا نقصت فيه ملكة الفن أو ملكة العلم أو ملكة لروح .

لو أصبح كل الناس مصارعين لفسد كل الناس .

ولكن لا بد من المصارعة مع هذا ، ولا بد من المتفرغين لها إذا أردنا لها البقاء .

ولو أصبح الناس كلهم متصوفين معرضين عن شواغل الدنيا لفسدت الدنيا وبطل معنى الحياة ومعنى الزهد فى الحياة .

ولكن لابد من هذه النزعة فى بعض النفوس ، والاقتصار عن الشأو الأعلى فى مطالب الروح ، وفقدنا ثمرة « التخصص » أو ثمرة « القصد الحيوى » الذى ينظم لنا ثروة الأرواح وثروة العقول وثروة الأبدان .

* * *

فنحن لا ننقد الحقيقة التى بسطها الأستاذ القصيمى فى كتابه الجرىء على الباطل .

ولكننا نقابل حقيقته بالحقيقة التى توازنها وتتم لها موازينها ونقول إن الإفراط فى العناية الروحية كالإفراط فى العناية الجسدية بلاء إذا عم جميع الناس ، ولكن البلاء الذى هو أعظم منه وأقسى على الناس جميعاً أن يبطل فيهم « الاختصاص » ولو كان الإفراط من مستلزماته ، لأن « الإنسانية » كلها تستفيد من زيادة ملكاتها ، وهى لا تزيد إلا بنقص فى بعض الآحاد المعدودين .

عباس محمود العقاد

على الطريق

فى سورية ولبنان

للدكتور عبد الوهاب عزام بك
عميد كلية الآداب

أثبت فى هذا المقال طرفاً مما شهدت فى طريقى أثناء تجوالى فى سورية ولبنان فى سفرتى الآخرة

لا أعرض لما شهدت وسمعت فى المجامع والمجالس من آيات الحب والود بين البلاد العربية وإكبار إخواننا فى سورية ولبنان لمصر وأهل مصر ، ولكن أسجل حوادث طارئة ، وأمارات عابرة شهدتها على الطريق لم تصدر عن إعداد أو احتفال أو تكلف بل ترجمت به الأنفس عما فيها ترجمة صادقة خالصة :

سارت بنا باخرة صغيرة اسمها القاهرة من الأسكندرية تؤم بيروت . وكان ركبان الباخرة قليلين أشتاتاً آلف بينهم سفر قصير ، ولم أحاول أن أختلط بهم أو أتعرف إليهم ، وتركت نفسى على سجيتها ، والأمور على أذلالها

رأيت شاباً أسمر عربىّ السحنة يتكلم لهجة عذبة بين العامية والفصيحة .

قال : أنا من زحلة ، وأقيم مع أسرتى فى نيكاراجوى من أمريكا الوسطى ، وهناك بيتان من العرب فقط ؛ ولكنا نحفظ لغتنا ونحرص على تعلمها والتكلم بها .

قلت : ولكن لغتك عربية خالصة تعلو على العامية .

قال : هذا أثر الدرس والقراءة

قلت : لقد نطق وجهك قبل لسانك بأنك عربى . فسرّ معتزاً

ورأيت كهلا يقيم فى دكار من بلاد السنغال وقد غاب عن بلده سنين كثيرة زهاء ثمانى عشرة فيما أذكر .

حدثنى الرجل عن مهاجرى العرب فى دكار وعن تجارتهم ومكانتهم وعن العرب من أهل البلاد والمستعمرين ، وأفادنى كثيراً من أخبار تلك البلاد وحالاتها . ومن طريف ما أخبرنى أن أهل السنغال شجر بينهم وبين الفرنسيين خلاف ، وامتد بينهم نزاع على بعض الأمور ؛ فقال السنغاليون يهددون فرنسا : نحن عرب ، وسنعمل للانضمام إلى الجامعة العربية

وسمعت عجوزاً من زحلة أو ما يصاقبها من القرى تقول وقد سمعتنا نتحدث عن اللغة العربية وحرص العرب عليها حيثما ساروا وأينما ساروا . قالت : أيترك الإنسان أمه إلى جارتها !

شرحت صدرى ، وأضاءت نفسى هذه الأحاديث وأشباهها وكم أصغيت إلى صاحبى القادم من دكار يحدثنى فى ضوء القمر ، ونحن نساير الساحل الشرقى من البحر الأبيض ، ونرى جباله ومناراته وأضواء بلاده بعيدة خافتة .

ونزلت من الباخرة صباح السبت لعشرة من شهر آب ، وفى سحنتى ولهجتى ما ييسر لى الأمور فى الميناء

وأخذت سيارة إلى دمشق ، فلما بلغنا أول مخفر فى سورية وقف عليه السائق وتقدم شرطى ينظر فى السيارة . قلت : أتريد جواز السفر ؟ فضحك وقال : عرفناك بلغتك . أهلا وسهلا ، مع السلامة مع السلامة . يعنى أنه عرفنى مصرياً .

ودخلنا مدينة حماة بعد ظهر الإثنين سادس شوال أنا ورفيقى الأستاذ عبد المحسن الحسينى فطعمنا واسترحنا فى فندق أبى الفداء ثم خرجنا نتفرج ونرى النواعير القائلة على نهر العاصى ، ونستمع لحنينها الدائم . وكنا على نية زيارة ملك حماة أبى الفداء صاحب التاريخ . فقلت لصاحبى : نرجع إلى الفندق فلن نعدم من يتعرف بنا ويدلنا على أبى الفداء . فلما بلغنا الفندق رأينا عربة تقف على الفندق ، فقلنا نركب هذه العربة إلى مزار أبى الفداء ، ورأينا رجلا ينزل من العربة وطفلا يبقى فيها ، فانصرفنا عنها ، وإذا الراكب الذى نزل يتقدم إلينا ضاحكا قائلا : أأعجبكما صورة العلم المصرى على ظهر الحصان . إن هذا الهلال والأنجم تصوّر العلم المصرى . قلنا : بارك الله فيك . وسألناه عن الطريق إلى أبى الفداء فمرّفنا نفسه وعرفنا ، فإذا هو من وجوه المدينة ولا أريد ذكر أسماء فى هذا المقال . قال : شرّفوا . ودعانا إلى الركوب . قلنا : معك طفل ، وقد خرجت للتنزه ، أو جئت للجلوس فى هذه الحديقة ، فلا نصدك عما خرجت له . فأبى إلا أن نركب معه . فأجبنا دعوته وسرنا إلى ضريح أبى الفداء فى ظاهر المدينة ؛ ولجنا باباً فرأينا إلى اليمين حجرة صغيرة عليها قبة ، فدخلنا إلى

ضريح قديم كتب عليه اسم أبي الفداء وتاريخ وفاته . ثم هبطنا درجات إلى صحن فيه أنبوب يستخرج الماء من نبع ويستقى منه جيران المسجد . وتقدمنا شطر الجنوب إلى مسجد صغير قيل لنا إن العامة تسميه مسجد الحيايا (أي الحيات) لأن فيه عموداً على صورة الحيات . فدخلنا إلى مصلًى في جداره القبلي إلى جهة الشرق نافذتان بينهما عمود من الرخام نحت نحتاً عجيباً ، وصورت عليه حبال متداخلة مجدولة كأنها حيات التف بعضها على بعض

وأبى كرم السيد الذى شرّفنا بصحبته إلا أن يرينا بعض الدور الأثرية في حماة . فقلنا : قد رأينا دار العظم في مهرجان أبي العلاء . فسار بنا إلى حيّ قديم فيه دار كبيرة جليلة مشرفة على العاصي ، هي دار الكيلاني ، فاستأذن لنا من أهلها فدخلنا فرأينا من نظام بيوتنا العتيقة وجمالها وجلالها ما راقنا وسرّنا .

وأمر مضيّفنا السائق أن يتوجه تلقاء داره . فسرنا إلى دار نزهة خارج المدينة على منحنى العاصي مشرفة على النهر تزينها وتزينه ، وجلنا في الحديقة إلى النواعير الخمس التي ترفع الماء إلى البساتين المجاورة ، فكان مشهداً عجيباً جميلا . وكان لأصوات النواعير وخرير المياه بين الأشجار ومجرى النهر وأشعة الأصيل الشاحبة على النواعير العالية جمال ورهبة وسحر .

ثم جلسنا في حديقة الدار مطلين على النهر في حفاوة صاحب الدار وكرمه .

فلما استأذنا أبى إلا أن يعود بنا إلى الفندق ، ولم يستجب رجاءنا إذ أشرنا عليه بالاستراحة في داره ، وكان يشكو ألماً يقطع عليه حديثه بين الحين والحين . ورجع بنا إلى الفندق وجلس معنا في المقهى حيناً ، وقام ليذهب إلى الطبيب معتذراً إلينا . وقد ألح علينا أن نبقى إلى الغد ، فعرّفناه أنا أزمعنا السفر ليلاً إلى حلب

فهذه حفاوة سيد من سادات حماة بمصريين قابلاه على الطريق دون معرفة سابقة . بارك الله فيه وفي طفله بشّار الذى آنسنا بصحبته وراقنا بمخايله وبما قصّ والده من أحاديث ذكائه .

وليس هذا إلا مثلا كريماً مما يلقاه المصريّ في الشام حيث توجّه !

***

وأزمعنا السفر إلى حلب بالقطار ، وعلمنا أنه يبرح محطة حماة والساعة ثلاث ونصف بعد نصف الليل ؛ فلم يثن هذا عزمنا وتركنا الفندق والساعة اثنتان ونصف .

وبينا نحن في انتظار القطار تقدم نحونا شرطيّ عرفنا بوجوهنا أو لهجتنا ، فتحدث إلينا وتلطف . وساق الحديث إلى ثورة سورية وبلاء أهل حماة ، وأفاض الرجل في الحديث ، ثم تكلم عن الجامعة العربية ، وعن عبد الرحمن عزام فأثنى عليه . ثم نظر إلى وقال : أرى فيك والله شبهاً منه . فضحكت وقلت : هل رأيته ؟ قال : رأيت صورته . وما زال الرجل يتعهدنا حتى أركبنا القطار وودّعنا .

فهذا شرطيّ في محطة صغيرة في أخريات الليل لم يشغله عمله وتعبه عن الحديث والمودة . ولم يقصر علمه عن معرفة البلاد العربية والجامعة العربية ورجالها .

(للكلام صلة) عبد الوهاب عزام

فتح عكا

(٦٩٠ هجرية — ١٢٩١ ميلادية)

للأستاذ أحمد رمزي بك

جاء في نهاية المقال القيم الذي كتبه الأستاذ محمود عزت عرفة بعدد الرسالة رقم ٦٩٣ أن سقوط عكا بيد المسلمين كان في عهد الملك الظاهر بيبرس ، والحقيقة أن الفتح تم في عهد الملك الشهيد الأشرف صلاح الدين خليل بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون في سنة ٦٩٠ هجرية ١٢٩١ ميلادية ، وقد تم على يده فتح صور وصيدا وبيروت وغيرها من مدن الساحل فأعادها إلى الاسلام ، وأطلق على هذه الحروب إسم الفتوحات الأشرفية ، واستمر المسلمون قرونا بالساحل والجبل يؤرخون بهذا الفتح فيقولون تم هذا في أيام الفتح الأشرفي أو بعده أو قبله . وفي بيروت حيّ مشهور اسمه حيّ الأشرفية نسبة إلى ملك مصر الشهيد الأشرف خليل بن قلاوون ، وقد ذكر جيبون المؤرخ الانجليزي نهاية هذه الحروب وهذا الفتح فقال : « ساد سكون محزن على امتداد ذلك الساحل الذي ظلّ أزماناً طويلة ميداناً تسمع فيه قعقعة سيوف نضال العالم » .

وهذا الفتح من أهم الفتوحات الاسلامية التي منّ الله بها على مصر الاسلامية في أزهى عصورها بل جعل منها دولة مهيبة الجانب يخشاها العدو ويرهبها الصديق ، وبقيت موضع رعب أوربا حتى موقعة امبابة أيام نابليون .

ويقول ابن الفرات في كتابه إن سلطان مصر لما عزم على التوجه إلى حصار عكا أمر بجمع العلماء والقضاة والأعيان والقراء بتربة والده الملك المنصور وهي لا تزال بالقاهرة إلى اليوم وتعدّ تحفة من تحف الفن الاسلامي العربي ومفخرة من مفاخر ذلك العصر . أرجو أن تذهب لرؤيتها وإشباع النظر بها .

قال إنهم اجتمعوا في ليلة الجمعة الثامن والعشرين من صفر من هذه السنة ، وباتوا بالقبة المنصورية يقرأون القرآن الكريم ، وحضر الملك الأشرف إلى التربة في بكرة نهار الجمعة وتصدّق بالهبات وفرّق على القراء والفقراء أموالا كثيرة غير الكُسَى والهدايا التي وزعها على أهل المدارس والرباطات والزوايا . كأنه كان يودع والده حينما عزم على التوجه للجهاد .

وفي الثامن من ربيع الأول نزل السلطان من القلعة وتوجه بالعساكر المنصورة إلى دمشق وسار منها حتى نزل على عكا وحاصرها وسدّ الطرق عليها ، وكان الفرنجة لما بلغهم مسير الجيوش الاسلامية المصرية وعزم السلطان على محاصرة مدينتهم في قلق زائد ، ولذلك كتبوا إلى ملوكهم وسألوهم النجدة . فاجتمع لديهم جموع من مختلف مللهم ونحلهم . ويقول السير وليم موير « إن جزيرة قبرص بعثت بنجدة إليهم » ، ولكن الذي يظهر من كلام المؤرخين المعاصرين أن أكثر النجدة أتت إليهم من الأرمن القيمين بالمشرق .

وليس في عزمي شرح المعارك التي ظهر بها المسلمون على الصليبيين في آخر عهدهم ، ولا ذكر القتال يوماً بعد يوم وتتبع الشهداء والقواد وأهل الرياسة من جند مصر والشام فتلك ملحمة من ملاحم الاسلام أجمع لها المواد ليوم قريب بإذن الله ؛ كما أنه ليس في العزم أن أكتب عن الملك الشهيد الأشرف خليل وحياته ، ولذلك نمرّ على ذلك مراً ، ونكتفي بشهادة بعض المعاصرين نقلا عن صاحب النجوم الزاهرة .

قال النويري : « كان ملكا مهيباً شجاعاً مقداماً جسوراً جواداً كريماً » .

وقال الذهبي : « لو طالت أيامه لأخذ العراق وغيرها . فانه كان بطلا شجاعاً مقداماً مهيباً عالي الهمة » .

وقال صاحب النجوم « وجمهور الناس على أنه أشجع ملوك الترك قديماً وحديثاً بلا مدافعة ، ثم من بعده الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق ، وشهرتهما في ذلك تغني عن الاطناب في ذكرها » .

ولقد كان الأمير بيبرس المنصوري شاهد عيان لمعركة عكا ،

ولذلك أطنب فى وصفها ووضع ذلك فى كتابه « زبدة الفكرة » وقال إن هذا الفتح العظيم جاء فى يوم الجمعة المبارك السابع عشر من جمادى الآخرة من سنة ٦٩٠ ، وإن عكا انتزعت من يد المسلمين فى عهد صلاح الدين سنة ٥٨٧ ، وبقيت بيد الصليبيين ١٠٣ سنة ، وختم كلته بقوله : « لله الحمد على انتصار المسلمين واستظهار الموحدين بهمة أولى الهمم العلية ، والعزمات المنصورة المنصورية (نسبة إلى المنصور قلاوون) الأشرفية (نسبة إلى الأشرف خليل) ، ولا شك فى أن هذه الطائفة أربت على الأول ونالت بها الدولة من النصرة والنضرة ما لم تنله الدول » .

ويصف السير وليم موير فى كتابه « تاريخ دولة المماليك » سقوط آخر معقل للصليبيين بالمشرق والحقد يأكل قلبه فهو لا يترك نقيصة إلا ألصقها بالمسلمين وملكهم فيقول : « حتى الفرسان الذين وُعدوا بأن يفسح لهم طريق النجاة أمر السلطان بقطع رقابهم جميعاً بدون رحمة ، وأن ما لاقاه أهل بيروت من إهدار دمائهم وقتلهم صبراً لا يقل فظاعة عما وقع فى عكا » . يسوق كل هذا ولا يبين لنا أسباب هذا الغدر من الجانبين .

ولقد احتفلت العاصمتان مصر ودمشق بهذا الفتح الأشرفى العظيم ، ولما دخل الأشرف مدينة دمشق زينت له الشوارع وأقيمت القباب وأقواس النصر ، ودخل وبين يديه الأسرى من الفرنج تحت الخيول وفى أرجلهم القيود وأعلامهم منكسة ، ولما دخل مصر شق المدينة من باب النصر إلى باب زويلة ، وأقيمت له الاحتفالات الشائقة .

ولما كثرت الأقاويل والروايات عن هذا الفتح ، وصرح كثيرون أنهم تنبأوا به قبل وقوعه ، وقال بيبرس المنصورى : ولما أتاح الله هـذا الفتح وسهّله وأباحه وعجّله قرظه الشعراء ، وذكره الفضلاء » .

وقد اطلعت فى كتاب ابن الفرات على الكثير من القصائد التى قيلت أعجبنى منها بعض الأبيات أنقلها لقراء « الرسالة » .

فمن قصيدة الشيخ بدر الدين محمد بن أحمد بن عمر المنجى التاجر المقيم بالقاهرة :

بلغت فى الملك أقصى غاية الأمل
وفُت شأو ملوك الأعصر الأول

ونلت بالحول دون الناس منفرداً
ما لم تنله ملوك الأرض بالحيل

وهى طويلة فيها العربية السهلة وبعض الألفاظ العامية ومن الغريب أن يأتى بعد خمسة قرون من ينحو نحوها ويقول :

ماذا أقول وكيف القول فى ملك
قد فاق كل ملوك الأعصر الأول

وقال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر أظنه صاحب سيرة الملك الظاهر :

يا بنى الأصفر قد حل بكم نقمة الله التى لا تنفصل
قد نزل الأشرف فى ساحلكم فابشروا منه بصفع متصل

وكتب القاضى شهاب الدين أبو الثناء محمود الحلبى كاتب الانشاء قصيدة أطول من كل هذا نحا فيها نحو صاحب قصيدة « السيف أصدق أنباء من الكتب » ، وقلّد عباراته وتشبيهاته جاء فيها :

بشراك يا ملك الدنيا لقـد شرفت
بك الممالك واستعلت على الرتب

فانهض إلى الأرض فالدنيا بأجمعها
مدّت إليك نواصيها بلا نصب

أدركت ثأر صلاح الدين إذ غضبت
منه لسر طـــواه الله فى اللقب

إن عكا مدينة عزيزة على القلب بذكرياتها ، اقلب صفحات الفتح الأشرفى فاقرأها بجانب صفحات من عاصر صلاح الدين وعاين قلقه على جنوده المحاصرين بقلعتها . أمضيت أياماً أسجل من سيرته تنقلاته فى التلول المقابلة لسهول عكا ، وأتابع تلك النفس العظيمة ، ولذلك كنت كلما مررت بهذه الجهات يخفق قلبى وتهتز نفسى شوقاً إلى أرواح الشهداء الذين ماتوا على تلك البقعة التى تجمع مع الطهارة الخلود فى نفس كل مسلم .

أحمد رمزى

من صميم الحياة ...

للأستاذ على الطنطاوى

هذه قصة شاب مدرس فى ثانوية من ثانويات البنات فى بلد من بلاد الله حديث السن لم يجاوز إلى الآن الرابعة والعشرين ، معتزل متفرد عاكف على كتبه ودفاتره ، لا يخالط الناس ، وليس ممن يبتغى الظهور فيهم والحظوة لديهم ، فلا يحاول أحد من القراء أن يبحث عنه أو يسعى إلى معرفته ، وليكتفوا من قصته التى قصها علىّ بمكان العبرة منها ، إذا كان قد بقى فى القارئين من يفتش على العبرة ، أو يسعى إلى الاعتبار ...

***

وهذا الشاب ابن صديق من أدنى أصدقائى إلى قلبى ، وكان فى صباه تلميذاً لى ، وكان من أذكى الطلاب قلباً ، وأطهرهم نفساً ، وأمتنهم خلقاً ، وأتقاهم لله فى سرّ وفى علن ، وكان على صغره جاداً بعيداً عن المزاح ، مجتنباً الهزل ، باراً بأمه وأبيه ، لا يعرف إلا مدرسته وبيته ، لم يُرَ قط واقفاً فى طريق ، أو ماشياً إلى لهو ، وثبت على ذلك حتى شبّ وأكمل الدراسة ، وفارق المدرسة ، وهو لم يدخل قهوة ولا سينما ، ولم يصاحب أحداً أبداً ، ولم يجالس امرأة غير أمه ولم يكلمها ...

وكان لذلك بمنزلة الأخ الأصغر منى ، أحبه محبة الابن ، ويجلنى إجلال الوالد ، وكان ينفض إلىّ دخيلته ، ويكشف لى سريرته ، وكان من مزاياه أنه صادق اللهجة ، لم أجرّب عليه فى هذه المدة الطويلة كذباً قط ...

***

وانقطع عنى مدة طويلة ، ثم رأيته فأخبرنى أن والديه قد توفيا بالتيفوئيد فى شهر واحد ، وأنه غدا وحيداً فاحترف التعليم ، وبعثتْ به الوزارة ، لما تعلم من عظم أخلاقه ، إلى مدرسة ثانوية للبنات ، فثار وأبى وطلب نقله إلى غيرها من مدارس البنين ، فما زالوا به يداورونه ويقنعونه بأنه إن كان معلمّ البنات رجل مثله ، فذلك خير لهن من أن يدخل عليهن فاسق خبيث ، وإن قبوله التدريس فى هذه المدرسة قربة إلى الله ، فخدع المسكين وقبل!

قال : وبتّ ليلة افتتاح المدرسة بليلة نابغيّة لم ينطبق فيها جفناى ، من الفكر والوساوس والمخاوف ، فلما أصبح الصباح ذهبت أقدم رجلا وأؤخر أخرى ، حتى دخلت المدرسة ، فما راعنى عند الباب إلا أن فتاتين كاملتى الأنوثة ليستا بالصغيرتين ولا القاصرتين قد دخلتا أمامى ، فلما صارتا من داخل ألقتا عنهما الخمار ، فعادتا كأنهما فى دارهما ، وتلفتّ حولى فإذا ملء الساحة فتيات نواهد نواضج الأجساد ، قد حسرن ورحن يلعبن ويمشين وهنّ بالثياب الحريرية الزاهية ، شعورهن مهدّلات على الأكتاف ، والسواعد عاريات والسيقان ، فأحسست كأنما قد صبّ علىّ دلو من الماء الحامى ، فاحترقت منه أعصابى ، فاستدرت راجعاً ونفضت يدى من الوظيفة ، وقلت : الرزق على الله !

وقصدت بيتى فما وسعنى والله البيت ، ووسوس إلىّ (لا أكتمك) الشيطان ، وزين لى تلك المتعة بمعاشرة أولئك الفتيات ، والحياة بينهن ، فاستعذت بالله ، وأعرضت عنه ، وذهبت أفتش عن عمل غير هذا ، فسدّت فى وجهى الأبواب إلا هذا الباب ، ولاحقتنى الوزارة وإدارة المدرسة حتى عدت مكرهاً . .

وأنا رجل رضت نفسى على العفاف ، وأخذتها بضروب الرياضات حتى سكنت شِرّتها ، ولكنها مع ذلك كانت تثور بى كلما سبقت عينى وأنا غافل إلى فتاة فى الشارع كاشفة ، أو سمعت أذنى حديثاً من أحاديث الشبان سقط إلىّ وأنا لا أطلبه ، أو قرأت (وقلما أقرأ) قصة خليعة ، أو نظرت (ونادر أن أنظر) مجلة من هذه المجلات الداعرة الخبيثة وما المرأة التى يفتش عنها الشبان ويتحدثون عنها إلا هذه النّصف التى تصلح ما أبلى منها الدهر بالثياب والأصباغ وما عند العطار ، والتى تقاذفتها الأيدى حتى صارت كالغصن الذاوى وكالثوب الخلَق ، فما بالك بشاب كتب عليه أن يباشر النهار كله فتيات كزهرة الفلّ ، أو كالغلالة الجديدة ، لم تمسسهن يد بشر ، ولم يعرفن من تجارب الحياة ما يتقين به شباكها ، ويطلب منه أن يكون عفيفاً شريفاً ، وأن يكنّ هن أيضاً عفيفات شريفات ، وله فى نفوسهن مثل الذى لهن فى نفسه ؟

يا أستاذ ! إن الخطر أشد مما تتوهمون أنتم معشر الكتاب المعتزلين في بيوتهم أو في أبراجهم العاجية ، كما يقولون عن أنفسهم ، الخطر أشد بكثير ... شباب وشابات ، يُعصى كلاً منهما أن يشم ريح الآخر من مسيرة فرسخ ، يجتمعون على دروس الأدب وقراءة أشعار الغزل ... تصور (يا أستاذ) المدرس يلقى على طالباته حديث ولادة وابن زيدون ، وإنها كتبت كما رووا (كذباً أو صدقاً) على حاشية ثوبها :

أمكن عاشق من صحن خدي ... وأمنح قبلتي من يشتهيها

ويمضي يشرح لهن ذلك ويفسره لهن . . حالة فظيعة جداً يا أستاذ ... ولو كن كبيرات مسنات ، أو كن مستورات محجبات ، أو لو كن صائمات مصليات يخفن الله ، لهان الأمر ، ولكنهم يجتمعون بهن على سفور وحسور وتكشف ، وتنطلق البنت حرة تزور معلمها في داره ، وتمشي معه إن دعاها إلى السينما أو التنزه ، كذلك يرى الآباء اليوم بناتهم فلا ينكرون ذلك عليهم .. !

أنا لا أقول إن الآباء كلهم لا يهمهم أعراض بناتهم ، وإن كل أب قرنان ، معاذ الله أن أقول ذلك ، ولكن هؤلاء الآباء قوم مغفلون ، أعمى أبصارهم بريق الحضارة الغربية فحسبوا كل شيء يجيء من الغرب هو خير وأعظم أجراً ، ولو كان ذهاب الأعراض والأديان والأبدان ! إن هؤلاء كالنعامة يلحقها الصياد فتفر منه حتى إذا عجزت أغمضت عينيها ودست رأسها في التراب لظنها أنها إذا لم تبصر الصياد ، فإن الصياد لا يراها ! إن هذا الأب يحسب أن كل رجل ينظر إلى ابنته بعينه هو ، وطبيعي منه ألا ينظر هو إليها بعين الشهوة ، فلذلك يطلقها في الشارع ، ويبعث بها إلى المدرسة على شكل يفتن العابد ، ويحرك الشيخ الفاني .. !

* * *

دخلت يا سيدي ودرست ، وكنت أغض بصري ما استطعت وأحافظ على وقاري ، ولا أنظر في وجوه الطالبات إلا عابساً ، ولا أقول كلمة في غير الدرس المقرر ، وكنت مع ذلك أداري من أثرهن في أعصابي مثل شفرة السيف الحديد ، وإذا قرع الجرس خرجت قبلهن مهرولا حتى لا أماشيهن ولا أدنو منهن ، فذهبت مسرعاً إلى داري أصلي وأسأل الله أن يصرف عني هذه المحنة ، وأن يجعل رزقي في غير هذا المكان ، وكنت أصوم وأقلل الطعام لأطفئ هذه النار ، فإذا مشيت إلى الفصل وسمعت كلامهن ، وسبقت عيني إلى بعض ما يبدين من أعضائهن وزينتهن زادت ضراماً واشتعالا .. !

وكان فيهن طالبة هي ... لا .. لست أصفها ولا ينفعك وصفها ، وحسبك أن تعلم أنها زكية ومتقدمة في رفيقاتها ، وأنها من أسرة من أنبل الأسر ، وأنها فوق ذلك جميلة جداً . . جداً . . إنها تمثال ، هل رأيت مرة تماثيل الجمال والفتنة ... ؟ وكانت كلما نظرتْ إليّ قرأت في عينيها كتاباً مفتوحاً ، رسالة صريحة لي أنا وحدي ، وأحسست منها بمثل شرارات الكهرباء تخرق قلبي ... فكنت أزداد عبوساً وإعراضاً ، فلا يردها عبوسي ولا يثنيها إعراضي ، وأسرعت مرة ورائي وأنا خارج وهي تناديني : « سؤال يا أستاذ » ... ولها في صوتها رنة ... يا لطيف . . . ! فوقفت لها فجعلت تدنو مني حتى شعرت كأني ألامس ... ألامس ماذا ؟ لا أجد والله شيئاً أشبهها به ، لأنه ليس في الدنيا شيء آخر له مثل هذا التأثير ... فهربت منها وأسرعت إلى الدار ، وحرصت على ألا أدعها أو أدع غيرها تفعل مثل هذا !

وكنت أكتب الدرس في كراس وأدفعه إليهن لينسخنه ، فهو يدور عليهن ، فلما كانت نوبتها عاد إليّ الكراس وفيه هذه الأبيات لعلي بن الجهم :

نطق الهوى بجوى هو الحق ... وملكتني فليهنك الرق
رفقاً بقلبي يا معذبه ... رفقاً وليس لظالم رفق
وإذا رأيتك لا تكلمني ... ضاقت عليّ الأرض والأفق

مكتوبة بخطها منقولة من (المنتخب) ، فمحوتها وكتمت الأمر ، وعقدت العزم عقداً مبرماً على ترك التدريس ، وخرجت من الفصل بهذه العزيمة ، وكان في الساحة تلميذات فرقة أخرى في درس الرياضة ، وقد اصطففن بالشلحات ، كاشفات الأفخاذ والأذرع ، راسخات النهود ، يقفن كذلك بين الرجال (والمعلمون كلهم رجال) ... فكبر رأسي وأسرعت إلى الشارع ، وقد حلفت ألا أعود ولو مت جوعاً ، وبعثت بكتاب الاستقالة !

وصرت أيام وكنت وحدى فى الدار — وأنا وحدى دائماً ليس لى زوجة ولا قريب — فإذا الباب يقرع ، فقمت ففتحت وإذا بها تدخل علىّ ، وتغلق الباب وراءها ، وترفع الغشاء عن وجهها ، وتلقى المعطف عن منكبيها ، وكأن تحت جلدها الأبيض المورّد الناعم أنهاراً من الدماء تجيش بالرغبة ... مثل الشلالات المتحدرة ، وجلست أمامى كما تجلس أمام زوجها . . وقعدت تحدثنى تطلب درساً خصوصياً ، وعيناها تحدثانى تطلبان غير الدرس ... ولست يا أستاذى رجل سوء ولا أليف دعارة ، ولكنى رجل على كل حال ... فلما رأيتها فى دارى ... وتحت يدى ... والباب مغلق ... وهى تريد ... ملكنى الشيطان ... ورأيت الدنيا تدور بى ، ولما حاولت أن أتكلم اختنق صوتى ثم خرج وفيه بحة غريبة كأنى أسمع معها صوت إنسان آخر غيرى ، وهممت يا أستاذ ... ولكن صوت الدين رنّ فى أذنى ، ينادى لآخر مرة كما يصرخ الغريق آخر صرخاته ... فاستجبت له ... ولو أعرضت عنه لحظة لضاعت هذه الفرصة إلى الأبد ، ولخسرت أنا والبنت الدنيا والآخرة من أجل لذة لحظة واحدة ... ولم أتردد بل قلت لها بصوت بارد كالثلج ، قاطع كالسيف ، خشن كالبرد : « يا آنسة ، أنا آسف ، إن هذه الزيارة لا تليق بطالبة شريفة ، فاخرجى حالا ! » ... وفتحت لها الباب وأغلقته خلفها ، وتم ذلك كله فى دقيقة !

ولما خرجتْ ندمت ... نعم ندمت ... وعاد الشيطان يوسوس لى ، وضاق بى المنزل حتى كأنى فيه محبوس فى صندوق مقفل ، ولم أعد أدرى ما ذا أصنع ، وأحسست أنى أضعت كنزاً وقع إلىّ ، وتغلبت غريزتى ، فأخفت صوتها صوت الدين والعقل ، وأحسست توتراً فى أعصابى ، حتى وجدت الرغبة فى أن أعضّ يدى بأسنانى ، أو أضرب رأسى بالجدار ، وعدت أتمثل حركاتها ونظراتها ... فأراها أجمل مما هى عليه ، وأحس بها فى نفسى ، فكأنى لا أزال أشم عطرها ، وأرى جمالها ، بل لقد مددت يدى لأمسك بها ، فإذا أنا أقبض على الهواء ، وخيّل لى الشيطان أن هذه البنت لم تعد تستطيع الصبر بعد أن أذكى هذا النظام المدرسى نار غريزتها ، وأنها ستمنح هذه الـ ... هذه النعمة رجلا غيرى ... فصرت كالمجنون حقاً ، وحاولت أن أقرأ ففتحت كتاباً فلم أبصر فيه شيئاً إلا صورتها ، وأردت الخروج فرأيتنى أنفر من لقاء أىّ من أصحابى كان ولا أريد إلا إياها ، وحسدت إخوانى المدرسين الذين لم يتربوا مثل تربيتى الصالحة ، فتمنعهم من الانطلاق فى هذه اللذائذ انطلاق الذئب فى لحم القطيع الطرىّ !

والعفو يا أستاذ إذا صدقت فى تصوير ما وجدت ، فأنت أستاذى أشكو إليك ، وأنت الرجل الأديب قبل أن تكون الشيخ والقاضى ، فقل الآن ما ذا أصنع ؟ إنى تركت التدريس واشتغلت بغيره ، ولكنى لم أستطع أن أنساها ، ولو أنا أردت وصالها لقدرت عليه ولكنى لا أريد ، فما ذا أصنع يا أستاذ ؟ لقد حاولت الزواج ، فرأيت الأب الذى لا يكاد يمنع ابنته حراماً لا يمنحها حلالا إلا بمهر وتكاليف يستحيل دفعها على مثلى ، فأيست من الزواج ، فما ذا أصنع ؟

* * *

ما ذا يصنع يا أيها القراء ؟ قولوا ، فإنى لم أجد والله ما أقول!

(دمشق) على الطنطاوى

زورق الأحلام ...

للأستاذ عبد المنعم خلاف

هذه السفينة الجوية الجبارة التي طارت في أربعين ساعة من هونولولو إلى القاهرة في مرحلة واحدة ، مصمدة إلى جزر ألوشيان وشبه جزيرة ألاسكاو منطقة القطب الشمالي ، ثم حادرة إلى جزر جرينلند وأيسلند والجزر البريطانية والقارة الأوربية والبحر المتوسط ، مخترقة أجواء مختلفة ومناطق متضادة ، حاملة عشرة رجال من طلائع الإنسانية الحديثة ... إنها زورق أحلام حقاً تطير به الإنسانية كلها من أمسها إلى غدها في غزوة من غزواتها للطبيعة

أجل، ليس الذين طارت بهم عشرة وحسب ، وإنما هم الإنسانية كلها عبرت حاجزاً ، وكسرت قيداً ، وتخطت عقبات ، وكشفت مجهولا ، وأدخلته في رحاب المعلوم ، وصححت أخطاء ، ومهدت طريقاً لنفسها في سعيها الحثيث نحو صوب مجهول ...

وإنه لزورق أحلام حقاً عاشت به الإنسانية الواعية الراصدة في حلم سعيد ما لبث معبّر الزمان أن أوّله وعبره مع فلق صباح جميل على أرض النيل ...

وقد أحسست قلبي يرافق هؤلاء العشرة حين علم بانطلاق ذلك الزورق من قيود الأرض هناك في هونولولو ، فإن فيهم سر نوعه الذي وثق به وآمن بمستقبله ودعا إلى ذلك ...

وإنها للحظة فرح عميق سجلت على لوح الأرض حين بلغ هذا الزورق مرساه في غزوة من غزوات الإنسان لحصون الزمان والمكان ...

ولو قيل للناس: إن مَلكاً أو جنًّا سيطير إليكم من هونولولو إلى النيل لخرجوا إليه في يوم مشهود مجموع له ليزوّدوا فضولهم ونهمهم بحديث متاع لا يزالون يجترّونه ويذيعون سيرته مدى أعمارهم ... ولكن الذين طاروا كانوا عشرة من الناس ذوي الوجوه المألوفة والأجسام المحدودة المعروفة ، ولذلك قل من أبّه لهم من هذا الجنس الذي لا يزال ذاهلا عن قيمة ما يصنع في فتوح العلم وقيمتها في عقائد الحياة ...

***

إن فرحي بوصول زورق الأحلام في هذا الأوان الذي يجادلني فيه المجادلون في قيمة الإنسان لا يعدله إلا فرحي يوم طالعت الإعلان عن كتابي « أومن بالإنسان » في جريدة الأهرام منشوراً تحت خبر الوصول إلى سر القنبلة الذرية الذي أعلنه ترومان وأتلي ، فشعرت أن هذا التوافق المصادف إشارة موافقة من الأقدار على فكرة الكتاب ! ولقد ظل هذا الإعلان ينتظر في الأهرام دوره في النشر ما يزيد على شهر حتى أتى ذلك اليوم . ولو خيرت ما اخترت غير هذه المناسبة للاعلان ولو تأخر شهوراً أخرى ... ولو طولبت بأجر على ذلك التأخير وتلك الموافقة التاريخية لدفعته عن طيب خاطر ؛ فإنه ليس بالقليل أن ترى الأقدار تؤنسك بلفتة من لفتاتها وتتطوع لتصديق رأيك بتقديم دليل جديد يؤيدك وأنت في شك مما سيقابلك الناس به غداة الإعلان على رءوس الأشهاد عن قضيتك : « أومن بالإنسان » !

وحسبك من جزاء على التبشير بمستقبل الإنسان في زمن الشك والجحود به أن ترى أو تسمع كلمة تصديق وتشجيع ينطق بها ناطق الزمان فجأة وعلى غير انتظار !

وإنه لنصر في أول الطريق يثير الشجاعة إلى المضي إلى آخره حين تحس أن الكون معك بهتافاته وإرهاصاته ! .

وإن القضية التي يُعلن عنها وتدخل إلى الأذهان مع صدى ذلك الطارق الجبار العنيف الذي تنسف القدرة الإنسانية به مدينة في لحظة تترك عاليها سافلها ، لقضية ينبغي أن تكون أسلوباً جديداً من أسلوب تجديد الدعوة الدينية ، دعوة إقرار القيمة العليا التي للوجود ورب الوجود وخليفته في الأرض !

***

إن خطوات الفكر الإنساني في مجالات العلم السرية والجهرية خطوات متلاحقة تطالعنا بها الصحف والمجلات مع كل صباح ، ولكن طي الأبعاد والمسافات الشاسعة في سرعة بالجسم البشري الثقيل ، رهين الأحباس والقيود بطيران يخترق حجاباً وراء حجاب، ويركب طبقاً عن طبق فوق الضباب والسحاب والتراب ،

وبين المناطق المتضادة الجواء ، وعند قمة الأرض فى قطبها الشمالى، حيث البقاع التى يعمرها السكون الموحش والصمت المطبق والمناطق البكر والسهوب الثلجية التى تتجمد فيها الحياة وتضل فيها خطرات الظنون والأوهام — يجعل أمر اليوم الذى حمله زورق الأحلام أمراً خطيراً كبيراً يراه العوام قبل الخواص ، فيشمرون جميعاً أن هذا هو المجال الأصيل للجهد الإنسانى كله لو عقل الناس !

أيها الزورق العابر مناطق الجو وفضاء النفس البشرية ! القاهر لما فى الآفاق من سدود وعوائق ، ولما فى النفس من شكوك وقيود تقعد بالإرادة البشرية عند العجز القديم الذى يقعد ببنى الإنسان عن أن يبلغوا غايتهم من السيادة التى أرادها لهم خالقهم حين ينبههم كل يوم إلى أنه ليس هناك باب فى الطبيعة مكتوب عليه « ممنوع الدخول » إذا ما كان فى أيديهم المفتاح !

لقد كانت حمولتك أيها الزورق من أحلام البشرية العالمة الراصدة أضعاف حمولتك من ثقل الحديد والفولاذ والوقود وأجسام ملاحيك !

ولقد سلمت تلك الأحلام من الارتطام بصخور العجز والشك والوهن والكسل عن الاقتحام حين سلمت أثقالك من الارتطام بصخور الأرض !

وإن اليد الإلهية التى حملتك وسددتك إلى غايتك من غزو المجهول وكشف المستور وتصحيح المغلوط ، إنما هى يد تشير بالموافقة وتلوح للقاعدين على التراب أن هبُّوا ويحكم أيها النوام إلى السحاب ، ولا تقعد بكم عقائد الجهل ومثبطات الهمم عن محاولة الانطلاق وراء أحلامكم الطليقة ما دامت لا تبطل حقاً ولا تحق باطلا

وما كانت عبثاً تلك الطاقات المذخورة من الأحلام التى عشتم بها أيام العجز القديم ، ورفرف بها خيالكم حول عالم القدرة والحرية ...

أجل ، ما كان ذلك عبثاً ، وإنما كان إعداداً لهذا الحاضر ، وتدريبا باللعب على مستقبل حياة الجد والاكتمال ، وإرهافا للعزائم والإرادات ، ودفعا لها إلى أن تحاول تحقيق الأحلام فى عالم اليقظة !

أيها الزورق ! لقد ألقيت بحمولتك من الأحلام التى حملتها من تلك الجزيرة التى كانت مجهولة غائبة فى المحيط الأعظم إلى أرض النيل التى عُرفت فى دفاتر التاريخ أنها أول أرض حاول الإنسان فيها تحقيق الأحلام وتجسيم الآمال ، وحبت الإنسانية على عتباتها ودرجت وخطت إلى بعض غاياتها فى الآلاف الأربعة قبل الميلاد ، فكأن هذه الرحلة عبور لطريق الحضارة الإنسانية من آخرها فى أمريكا إلى أولها فى مصر ...

وكم ذا من الآماد بين الأمس البعيد واليوم ! وكم من جثث الرواد الذين عبدوا هذا الطريق مطروحة على حافتيه ! وكم رأى هذا الطريق من وجوه تطلعت فى نهاياته البعيدة فهالها بعد الشقة فقعدت حيث ولدت إلى أن ماتت ودفنت فى حفره وأغواره !

وكم قرعته أقدام القافلة الإنسانية فى وقع رهيب وزحف ودبيب ، وصلصلة قيود وأصفاد جملتها تسير ثقيلة الخطى ، محرومة الهدى مطموسة الأفق !

واليوم أيها الزورق الحالم ، تأتى طائراً فى أربعين ساعة من أقصى الأرض ، وفى هبوة من هبوات الرياح تثير غباراً فى أثرك هو لا شك رفات مسحوق من عظام أولئك الرواد الذين ماتوا على الطريق ودفنوا فيه !

وحسبهم عزاء أنهم رأوا ذواتهم غباراً يلحق ذيلك الجرار ... وأن رأوا أحفادهم يمتطونك فى خيلاء القوة ، وعزة الحديد وقبضة العلم كأنهم ركب من الجن فى زى ناس ...

وهل تملك الجن الحمراء أن تطير فى عالم الثلوج البيضاء ؟ !

أفتنا يا سليمان ! فإنك أعلم الناس بعالم الريح ، وصاحبُ البساط ومسخّر الجن وملهب ظهورها بالسياط !

وعليك السلام ، فقد كنت ثمرة مبكرة فى شجرة الإنسانية أمدت أحلامها وغذت آمالها وأفهمتها أن أحلام القدرة والانطلاق فى حيز الإمكان ، فلم تيأس حتى وصلت إلى تلك « الكرامات » العامة بعد تلك « الكرامات » الخاصة التى صنعها الله لبعض أصفيائه ليشير للنوع بهم إلى طريق التحرر والقدرة والانطلاق !

عبد المنعم خلاف

خاتمة فلسـفية ... !

للدكتور أحمد فؤاد الأهواني

تلك هي الخاتمة التي انتهى إليها الأستاذ عباس محمود العقاد .

ولم تكن هذه الخاتمة غريبة على هـذا الكاتب الذي بدأ حياته أديباً ، ناقداً ، شاعراً ، وكل شيء إلا الفلسفة . فقد يبدو للقارىء العادي أن معالجته الفلسفة الحقيقية مما يتنافى مع مظاهر كتاباته وكتبه ، ومطالعاته في الكتب والفنون ، غير أن الناظر في أعماق آثاره القلمية ، أو القارىء ماوراء السطور ، يلمح ولا ريب فكراً نافذاً عميقاً يتخطى الظواهر القريبة المألوفة ، ويذهب إلى الأصول الأولى والغايات البعيدة . وتلك هي النظرة الفلسفية ، رد الكثير إلى الواحد ، والبحث عن العلة الأولى والغاية النهائية .

ولهذا السبب كان جمهور القراء يجدون مشقة في فهم آرائه ، لأنه لا يحفل بالتوافه ويمضي إلى الأعماق ، ولأنه كاتب لا ينزل إلى الجماهير بل يأخذ بأيديهم إلى مستواه .

وكتاب « في بيتي » الذي صدر في سلسلة « إقرأ » ينبيء عن هذه الخاتمة الفلسفية ، ولو أن صاحب الكتاب تجنب الاعلان في العنوان .

أما كتاب الشيخ الرئيس ابن سينا ، الذي صدر بعد ذلك بعام ، فقد أسفر وأبان ، وكشف فيه العقاد عن حقيقة نزعاته الفكرية ، واتجاهاته العقلية .

غير أن نزعة الأدب التي التزمها خلال سنوات طويلة من حياته لم يتخل عنها ، فهي منه بمنزلة الطبيعة . وبتعبير فلسفي : أصبحت « مادة » فكره فلسفية ، و « صورة » فكره أدبية . وأعني بالصورة الأدبية أنه ينحو منحى ذاتياً شخصياً في التعبير ، في مقابل النزعة العلمية التي يعبر فيها صاحبها تعبيراً موضوعياً . لا تحس فيه بالتأثيرات الشخصية .

أو هكذا أفهم الأدب ، ولعل فريق الأدباء يفهمون منه شيئاً آخر .

وقد تسأل نفسك : ما المادة وما الصورة ، هذان الاصطلاحان اللذان وضعتهما بين أقواس ؟ .

ليس غريباً على من درس الفلسفة أن يعرفهما ، فهما خلاصة مذهب أرسطو في الفلسفة ، حين يقول : إن كل جسم طبيعي مركب من هيولى أو مادة ، وصورة . ولا مادة بغير صورة كالتمثال مادته النحاس ، وصورته هيئته التي هو عليها . ولست تجد نحاساً بغير صورة ، مهما تكن .

لقد تعرض العقاد ، حين تحدث عن فلسفة ابن سينا ، لأفلاطون وأرسطو ، وأفلوطين ، والكندي والفارابي ، بل وصل إلى فلسفة العصر الأخير الذي نعيش فيه ، فكأنه اتخذ من الشيخ الرئيس محوراً تدور حوله الآراء من الماضي البعيد إلى الحاضر القريب .

وهو منهج سليم ، لأن الفلسفة هي تاريخ الفلسفة .

وقد رأى أن يصنف المشكلات الفلسفية التي سوف يعالجها حتى يمضي في ترتيب ووضوح ، فلخصها في مسائل أربع : وجود العالم ، وجود النفس ، وجود الشر ، حرية الإنسان . ثم نظر إلى حلول الفلاسفة القدماء لهذه المشكلات المسيرة الحل ، وأثبت رأي ابن سينا فيها ، وهي على كل حال مشكلات لا تزال قائمة ، تعالجها الفلسفة ، وأكبر الظن أن الآراء سوف تظل متضاربة في شأنها ، لأنها تفوق نطاق العقل وحدوده ، على الرغم من تقريب العلم الحديث لبعض تفصيلاتها .

وإذا أردت أن تعلم رأي العقاد الشخصي في هذه المشكلات فاقرأ تعقيبه في آخر الكتاب ، فهو يذهب إلى أن المادة والعقل شيء واحد . فيضع بذلك حداً حاسماً للمشكلة التي أثارها الأقدمون مشكلة الثنائية في الموجودات ، أو الفلسفة المادية والفلسفة الإلهية ، كما يقول العقاد في تقسيمه لمشكلات الفلسفة ، أو بين المادية والروحية كما يذهب إلى ذلك بعض المفكرين .

وفي ذلك يقول ما نصه في آخر الكتاب « فصورة المادة

الحلم والتحلم ...

للاستاذ محمود عزت عرفة

(تتمة)

« إنما العلم بالتعلم ، والحلم بالتحلم ، ومن يتخير الخير يعطه ، ومن يتوق الشر يوقه » حديث شريف

تحامى الرذائل :

قال طرفة فى شعر له : حنانيك ، بعض الشر أهون من بعض !

وتلك جملة موجزة فى لفظها وفى معناها ، ولكنها تنطوى على حكمة بليغة ، وتكنُّ نظرية فى الأخلاق عظيمة النفع إذا نحن حاولنا أن نفهمها وأن نحسن تطبيقها ، ومؤدّى هذه النظرية أن يتقبل الإنسان الشر من الشرور ، ويحتمل غضاضة الرذيلة من الرذائل ، تخلصاً بهما من شر ورذيلة أبلغ ضرراً وأوخم عاقبة وتعد هذه مرحلة — لا بد منها — نتحول بها من وضع إلى وضع ، فنتخلص بأنفسنا من غياض الشر إلى رياض الخير ، وننتقل بجوهر أخلاقنا من مناقع الرذيلة إلى منابع الفضيلة .

ذلك أن الخير (كالحلال) بيّن ، والشر (كالحرام) بيّن ، وبينهما أمور متشابهة ، يلتبس فيها حق بباطل ، ويلتقى مباح بممنوع ...

وتحذير الرسول عليه الصلوات ، فى حديثه المعروف ، من هذه المواطن التى يشتبه فيها الحرام بالحلال إنما يتجه إلى الأخيار الذين أحرزوا من الفضيلة القسط الوافر . لأن تلبس أحدهم بالمتشابهات يعد انتكاساً له بعد عافية ، وانحداراً لنفسه بعد ارتقاء، أما من ران الشر على قلوبهم ، وملكت الرذيلة عليهم وردهم وصدرهم ، فهؤلاء سبيلهم إذا أرادوا الخلاص لأنفسهم أن يحاولوا « الترقى » أولا إلى درجة المتشابهات ، لأنها الطريق المفضى بهم فيما بعد إلى الخير والفضيلة خالصين من كل شائبة . ويعد هذا الترقى إلى المتشابهات فى حقهم فضيلة وتقدما ، وإن عُد فى حق الفضلاء من غيرهم شراً وارتكاساً ، ولا غرو فحسنات الماضين سيئات المطيعين !

وقد ذكرنا قبلُ من دواعى (التحلم) ما يُعدّ وسائل إلى بلوغه وتحصيله ، وضروباً من ترويض النفس وإغرائها على الأخذ منه بنصيب .

ونضيف هنا إلى ماسبق هنالك أن التحول بالنفس من معرة الغضب والحدة ، إلى كمال الحلم وفضيلة الإسجاح ، قد لا يتم دفعة ؛ وإنما يكون على مرحلة أو مراحل نساير فيها النفس التى

فى أذهاننا باطلة . فكيف نعلم ما يؤثر فيها وما لا يؤثر فيها على وجه التحقيق ؟

« والذى يثبت فى روعنا أن الكائنات خلق واحد يدور حول (الوحدانية) ، ولا فرق بينها غير الفرق بين التعميم والتخصيص .

« فالتعميم مظهر المادة ، والتخصيص مظهر العقل والحياة .

« فالمادة فى أبسط صورها شعاع « عام » لا فرق فيه بين مكان ومكان من الفضاء » .

ولقد ميز ديكارت من قبل بين المادة والفكر ، وجعل فى العالم ثنائية يصعب الجمع بينهما بعد ذلك : غير أن اسبينوزا بالذات وهو من المدرسة الديكارتية ، اضطر للتوفيق بينهما إلى القول بوجود ما يسميه الامتداد العقلى

مهما يكن من شيء فإن اهتداء العلم الحديث إلى أصل المادة وأنها ذرة أو جزء لا يتجزأ ، وأن هذه الذرة هى فى النهاية إشعاع أو طاقة ، كل ذلك لا يحل مشكلة المادة والعقل ، لأن العقل ليس إشعاعاً ... من يدرى لعله كذلك ولكننا لا نستطيع أن نجزم بشيء .

والعبر التى نأخذها من كتاب العقاد كثيرة ، منها أن اتجاه مفكرينا وجهة فلسفية دليل على الرقى العقلى ، والسمو إلى عالم المعانى ، ومنها أن استساغة الجمهور لهذا النوع من التأليف ، بل إقباله عليه . دليل على رقى الجمهور بل على انتقاله من طفولة الفكر إلى شبابه .

والخاتمة الفلسفية هى نهاية التقدم .

أحمد فؤاد الأهوانى

نعالجها من حال إلى حال . فقد نستطيع مثلا أن نفثأ من حر غضبها وشدة بادرتها بنوازع — نجعلها تسترخ إليها مؤقتاً — من الكبر والاستهانة بالمسيء وتحقير شأنه .

ونحن لم نعدُ في هذا أن تحولنا بها من رذيلة إلى رذيلة ، ولكن إذا مرنت النفس على ذلك ، وتزحزحت عما استولى عليها من الغضب والحدة إلى خلق طارىء من الأنفة والاستكبار أمكننا أن نعالج هذه الحالة الأخيرة بوسائل علاجها ، ثم لا نزال ننتقل بالنفس من وضع إلى وضع حتى تخرج عن حد الرذائل والمتشابهات جملة ، وتنتهي إلى الخير المحض الذي نتوخاه لها .

وقد نص الغزالي على هذه الوسيلة من العلاج في مؤلفاته غير مرة فهو يقول مثلا في كتاب « رياضة النفس وتهذيب الأخلاق » من سفر الإحياء : من لطائف الرياضة إذا كان المريد لا يسخو بترك الرعونة رأساً أو بترك صفة أخرى ، ولم يسمح بضدها دفعة ؛ فينبغي أن ينقله — أي المرشد — من الخلق المذموم إلى خلق مذموم آخر أخف منه ؛ كالذي يغسل الدم بالبول ، ثم يغسل البول بالماء ، إذا كان الماء لا يزيل الدم . وكما يرغب الصبي في المكتب باللعب بالكرة والصولجان وما أشبهه ، ثم ينقل من اللعب إلى الزينة وفاخر الثياب ، ثم ينقل من ذلك بالترغيب في الرياسة وطلب الجاه ، ثم ينقل من الجاه بالترغيب في الآخرة . هـ .

وفي « ربع المهلكات »(١) من سفر الإحياء إشارات متعددة إلى هذا العلاج يدرجها الغزالي في أعقاب كل خلق مرذول عند النص على أوجه علاجه . ففي كتاب ذم البخل وذم حب المال يقول : ومن لطائف الحيل فيه أن يخدع نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالسخاء ، فيبذل على قصد الرياء حتى تسمح نفسه بالبذل طمعاً في حشمة الجود ؛ فيكون قد أزال عن نفسه خبث البخل واكتسب لها خبث الرياء . ولكن ينعطف بعد ذلك على الرياء ويزيله بعلاجه . ويكون طلب الاسم كالتسلية للنفس عند فطامها عن المال ، كما قد يسلى الصبي عند الفطام عن الثدي باللعب بالعصافير وغيرها ، لا ليخلى واللعب ، ولكن لينفك عن الثدي إليه ثم ينقل عنه إلى غيره . فكذلك هذه الصفات الخبيثة ينبغي أن يسلط بعضها على بعض . هـ

وهذا العلاج الذي وضعنا له عنوان « تماحي الرذائل » ينطوي على خطر غامض دقيق يستوجب ألا يتعرض لمزاولته وأخذ المريد به إلا كل طَبّ خبير بأدواء النفوس ، عارف بالعلل الخلقية دقيقها وجليلها ، وأيها أصعب علاجاً ، وأيها أيسر تحولا ... وإلا تفاقمت العلة بتربصه وهو يحاول شفاءه ، أو مات بين يديه وهو يريد إحياءه ...

وقد سبق الغزالي إلى توضيح هذه الخطورة وإلى التحذير منها — وكم للغزالي من سبق إلى مثل هذه الحقائق النفيسة الخالدة — فهو يقول بعد ذكر علاج البخل (بتكلف السخاء على قصد الرياء) : إلا أن هذا مفيد في حق من كان البخل أغلب عليه من حب الجاه والرياء ، فيبدل الأقوى بالأضعف ، فإن كان الجاه محبوباً عنده كالمال فلا فائدة فيه ، فإنه يقلع من علة ويزيد في أخرى مثلها !

ويضرب لنا الغزالي في موضع آخر مثالا حسياً عجيباً لتناحر هذه الرذائل واصطراعها في النفس حتى تضعف فتفنى جميعاً ، وتحل محلها الفضيلة التي جعلناها هدفنا من العلاج ، فيقول : مثال دفع هذه الصفات بعضها ببعض ما يقال إن الميت تستحيل جميع أجزائه دوداً ، ثم يأكل بعض الديدان البعض حتى يقل عددها ، ثم يأكل بعضها بعضاً حتى ترجع إلى اثنتين قويتين عظيمتين ، ثم لا تزالان تتقاتلان إلى أن تغلب إحداهما الأخرى فتأكلها وتسمن بها ، ثم لا تزال تبقى جائعة وحدها إلى أن تموت . فكذلك هذه الصفات الخبيثة يمكن أن يسلط بعضها على بعض حتى يقمعها ويجعل الأضعف قوتاً للأقوى إلى أن لا يبقى إلا واحدة ، ثم تقع العناية بمحوها وإذابتها بالمجاهدة . هـ

خاتمة :

الحلم كسائر الفضائل وسط ممدوح بين طرفين مذمومين . فإذا نحن « تحيفنا » منه متجهين إلى أحد طرفيه كان ذلك تفريطاً في الحلم يتحول بنا إلى الحدة وإلى السفاه وسرعة الغضب . وإذا نحن « زدنا » فيه متجهين إلى طرفه الثاني كان إفراطاً يفضي إلى الضعف والخور وفقد الحمية ، وكلا الطرفين مذموم .

---

(١) يقسم الغزالي مؤلفه النفيس (إحياء علوم الدين) أربعة أرباع : ربع العبادات وربع العادات وربع للمهلكات وربع المنجيات ؛ وكل ربع يتألف من عشرة كتب فجملة (الإحياء) أربعون كتابا .

أما الأول فحاله معروف ، والتحذير من الغضب كثير ، لأن النفوس إليه أسرع ، فكان التخويف منه أوجب وأولى .

وأما فقد الحمية فآفة أقل — في سواد الناس — من الغضب انتشاراً ، ومع ذلك يتردد ذمها كثيراً ، لأنها الإفراط المتناهي في الحلم الذي يتحول به من ممدوح الفضائل إلى مقبوح الرذائل.

يقول الغزالي في هذا المعنى : « لما كانت الطباع إلى العنف والحدة أميل كانت الحاجة إلى ترغيبهم في جانب الرفق أكثر ؛ فلذا كثر ثناء الشرع على جانب الرفق دون العنف ، وإن كان العنف في محله حسناً ، كما أن الرفق في محله حسن . فإذا كان الواجب هو العنف ، فقد وافق الحق الهوى ، وهو ألذ من الزبد بالشهيد ! »

هذا ، ومن المشاهد الذي يستحق التسجيل أن السفه قد يكون مستحسناً في بعض المواطن ، وربما يبدو في بعض الظروف واجباً حتى ليذكر في معرض المدح . ومن هنا يقول عمرو بن العاص : أكرموا سفهاءكم فإنهم يقونكم العار والشنار ! ويقول مصعب بن الزبير : ما قل سفهاء قوم إلا ذلوا ! ويقول الشافعي ناصحاً للفقهاء : ينبغي للفقيه أن يكون معه سفيه ليسافه عنه !

وانظر بعد إلى قول أبي تمام في مدح إسحق بن إبراهيم المصعبي:

إن المنايا طوع بأسك، والوغى ... ممزوج كأسك من ردًى وكلوم
والحرب تركب رأسها في مشهد ... عُدل السفيه به بألف حليم !
في ساعة لو أن لقمان بها ... — وهو الحكيم — لكان غير حكيم

وفي حديث شريف : خير أمتي أحداؤها (من الحدة) الذين إذا غضبوا رجعوا . ومن مأثور قول الشافعي : من استُغضب فلم يغضب فهو حمار . قال الغزالي : « فمن فقد قوة الغضب والحمية أصلا فهو ناقص جداً . وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بالشدة والحمية فقال : أشداء على الكفار رحماء بينهم . وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ... وإنما الغلظة والشدة من آثار قوة الحمية ، وهو الغضب » .

على أن الغزالي يحدد لنا صفة الغضب في موضع آخر فيقول :

« المطلوب من صفة الغضب حسن الحمية ، وذلك بأن يخلو عن التهور وعن الجبن جميعاً ؛ وبالجملة أن يكون في نفسه قوياً ، ومع قوته منقاداً للعقل »

فليس يغني المرء إذن أن يُعرف بالحلم في موضعه ما لم يعرف بالغضب كذلك في موضعه ؛ وإذا قلنا (الغضب في موضعه) ، فقد جعلناه فضيلة وحكمة ، إذ ليست الحكمة إلا وضع الأمور في مواضعها . بل لو قرنّا ذكر أية رذيلة بقولنا (في موضعها) لأصبحت فضيلة يُحث عليها ويشاد بذكرها. فالكذب في موضعه فضيلة وقد نسميه : حسن التأتي ، واللباقة ، وحسن التصرف . والجبن في موضعه فضيلة ، نسميه : الحرص ، والتوقي ، والحذر.. وهكذا .

القياس الصحيح إذن أن نوائم بين تصرفنا — بالقول أو بالعمل — وبين الموقف الذي نكون فيه ؛ وبقدر اختلاف المواقف يكون اختلاف التصرفات . والخطأ في التطبيق هنا يتأتى من الخلط بين كل موقف وما يلائمه من تصرف . وأحسب أن النعمان بن المنذر كان أحد من أخطأوا على هذا الوجه . فقد روى أنه أتى برجلين قد أذنب أحدهما ذنباً عظيما فعفا عنه ، والآخر أذنب ذنباً خفيفاً فعاقبه . ثم أنشد يقول :

تعفو الملوك عن العظيـ ... ـم من الذنوب بفضلها
ولقد تعاقب في اليسيـ ... ـر، وليس ذاك لجهلها ...
لكن ليُعرف حلمها ... ويُخاف شدة ذحلها !

وهذا سوء تصرف منشؤه الخلط بين مواطن العفو ومواطن العقوبة

نعم ، كان من حق النعمان أن يعرّف الناس حلمه ، وأن يخوفهم شدة ذحله ، لكن على أن يجعل لكل من الحالين موضعاً لا يعدوه ، وشرطاً لا يخل به . فأما وقد فاته ذلك فقد صيّر حلمه تفريطاً وعقوبته إفراطاً ... وكلا الأمرين وضَح[1] في جبين الحق ، وانحراف في ميزان الحكمة والعدالة .

(تم الحديث — جريا) **محمود عزت عرفة**

(١) من معاني الوضح : الضوء، والغرة، والشيب، والبرص، والمعنى الأخير نريد ؛ ومنه سمي جذيمة الأبرش بالوضوح انظر القاموس

الأدب في سير أعلامه :

ملـــتن ...

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والخيال . . .]

للأســتاذ محمود الخفيف

— ٣٠ —

البطل الضرير :

وكان ينتاب الشاعر الحزن على فقد بصره الحين بعد الحين وذلك كلما أحس الوحدة قاسية موحشة بعد فقد زوجته الثانية والظلمة محيطة به وبناته لا يملكن لأبيهن ولا لأنفسهن عوناً ولا نفعاً ، ولقد كان يتمهن وهن زغب الحواصل وأبوهن ضرير ، لا يرى في وجوههن رضاهن إذا رضين ولا ألمهن إذا ألمن ، من أكبر بواعث حزنه وغمه ...

ولكنه كان يعتصم بالحكمة أن يهن أو يتخاذل عزمه أو يتزايل وقاره ؛ وكان يلوذ بالشعر فيجد فيه ما ينشد من عزاء لروحه ، بل لقد كان والظلام والغم يعتورانه يجد فيه من الأنس ما يكاد يحس معه مثلما يحس الناس في الحياة لنفوسهم من بهجة ؛ ويحسب المرء أن يذكر هذا ، وأن يذكر كيف بلغ مع ذلك بقصيدته الكبرى مبلغاً تنقطع دونه الآمال ، وقد توالت عليه ألوان غير هذه من الشدائد ، ليرى مقدار أصالته في الشعر ومبلغ تعلقه بفنه ومدى إخلاصه له ؛ والحق أنه إن كان ثمة رجل له مما حاق به أكبر المعذرة عن القعود عما نهض له فلن يكون هذا الرجل إلا ملتن ، ومن لقي من الحياة مثلما لقي ؛ ولكنه لم يقعد بل لم تزده المحن إلا صبراً وإقداماً . فدل بذلك على أنه من الأفذاذ القلائل الذين تتضاءل الدنيا في نظرهم وتتحاقر تلقاء ما يسمون إلى بلوغه من نبيل الغايات ...

وضايقه يومئذ من ابني أخته أن سارا على نهج غير نهجه في الأدب والفن وسلكا سبيلا غير سبيله ، بل لقد كان ذلك يكربه أحيانا إذ يحس الفشل حتى في هذا ، فلقد قام على تربيتهما بنفسه وتوجيههما الوجهة التي يريد ، فلما كبرا كرها التزمت والمزيد من الجد والاحتشام ، وبرما بالبيوريتانية الجافة التي تبدو لهما كالشجرة جردت من كل ثمرة وكل زينة وإن بقيت قوية الجذع والأغصان فما ترى العين من معاني الشجرة فيها إلا القوة والصرامة

وأقبل الفتيان يستمتعان بالحياة كما يستمتع الفتية في المدينة وكان الناس قد سئموا البيوريتانية في نزعتها الاجتماعية وضاقوا بالحياة خالية من المرح والزينة . فتهافت الشباب على الموسيقى والشعر ، ورأت الحكومة ألا مناص من مماشاة هذه النزعة مخافة أن يؤدى التشدد في صدها إلى ازدياد الدعوة إلى إعادة الملكية ؛ فسمحت بنشر بعض الكتب الخفيفة التي تطلب للتسلية واللهو أكثر مما تطلب للمنفعة ؛ وكانت المسارح جميعاً مغلقة تحول الشرطة دون فتحها ؛ ولكن واحداً استجد فسمحت الحكومة بأن يستمتع فيه الناس بالموسيقى ، وبعض المسرحيات من النوع الغنائي ، وأحس أهل لندن بشيء من المرح والأنس يدب في الحياة التي ألقت عليها قيود البيوريتانية كثيراً من الوحشة والجهامة .

وتطرف الفتيان في مسايرة النزعة الجديدة ، وعلى الأخص أصغرهما جون فيلبس فقام على نشر كتاب احتوى على غير قليل من الاستهانة والمجون . ثم نشر كتاباً آخر جعل عنوانه : « سخرية من المنافقين » وهاجم فيه البيوريتانية هجوماً عنيفاً ، وأما أكبر الأخوين فكان لا يزال يغلب عليه التحفظ والتحرج وإن شايع الاتجاه الجديد كما تجلى في كتابه : « أسرار الحب والفصاحة » .

وفي أوائل شهر سبتمبر سنة ١٦٥٨ قضى كرمول نحبه ، وذهب بذهابه الرجل الذي طالما عقد ملتن عليه الرجاء ؛ وحزن الشاعر للنبأ العظيم وازدادت من المستقبل مخاوفه ، وإن كانت حماسته لكرمول قد مسها الفتور قبل مماته بسبب سياسته الدينية

ولسنا نعرف على وجه اليقين هل كانت ثمة صلة شخصية بين الرجلين ؟ ولقد ذهب فريق من المؤرخين إلى أن مثل هذه الصلة كانت قائمة بينهما ، ولكن لا يسوقون حادثة واحدة تؤيد زعمهم هذا وقصاراهم الاستنتاج والظن ، فقد كان كرمول يحب النابهين ويحسن جزاءهم ويقربهم إليه فما يفوته أن يصطفى رجلا مثل ملتن وضعته الحكومة في مثل ذلك المنصب الخطير ، وما ينسى له نضاله عن الجمهورية وبلاءه في رد كيد الكائدين ،

ويحاول هؤلاء أن يجدوا فى مقطوعته التى امتدح بها كرمول دليلا على صلة شخصية بينهما …

ولـكن فريقاً آخر من رجال الأدب ينكر هذه الصلة ، ويقولون إن رضاء كرمول عن ملتن لا يستلزم أن تكون له به معرفة شخصية ، وما دامت تعوزنا الحوادث المبينة التى تثبت ذلك فلا قيمة للظن والاستنتاج والاعتماد على قرائن واهية ، فما كل من ينظم مقطوعة أو قصيدة لملك أو حاكم يكون ذا صلة بذلك الملك أو ذلك الحاكم ، وأنا أميل إلى هذا الرأى وأزيد عليه أن ملتن رجل ذو كبرياء ، وقد عرف عنه أنه كان قليل الصلة برجال الحكومة أنفة منه وتعففاً أن يقال به حاجة إلى أحد ، كما أنه كان شديد الاعتداد بنفسه والحرص على كرامته ، فلم يك لذلك حدّيث مجالس ولا كان ممن يحسنون فن التقرب والتودد الذى هو فى حقيقة الأمر ضرب من الملق وإن تعارف أهله على تسميته بالكياسة أو اللباقة ، ولذلك لم يتقرب ملتن ولم يتودد وإن كان فى دفاعه عن الحكومة بكتبه شديد التحمس فياض الثناء ؛ ولم يك تحمسه وثناؤه إلا شعوراً وطنياً من ناحية وأمراً يقتضيه الدفاع والمغالبة من ناحية أخرى . وكان ملتن شاعراً ولم يك للشعراء عند رجال الحكومة من البيوريتانز ما ينبغى أن يكون لهم من رفيع المنزلة إن لم يضعهم الشعر فى موضع الكراهية لهم والاستخفاف بأمرهم ، هذا إلى أنه كانت للرجل آراء فى الطلاق وفى الدين عده الناس فيها مسرفا أو به جِنَّة ، وكان يحس ملتن كثيراً من الفتور والبرود عند من تضطره الظروف إلى لقائهم من كبار رجال الدولة ، وهو رجل فى أنفه ورم وفى نفسه أشد من الكبر على كل ذى كبر ، ولذلك تجافى هؤلاء الكبراء ، ومن كان هذا شأنه معهم كانوا خليقين أن يصرفوا بحيلهم نظر كرمول عنه إن اتجه إليه إن لم يعملوا على الكيد له والوقيعة به ، أما هو فلم يسع من جانبه إلى تقرب أو تودد ؛ قال ملتن يرد على رجل التمس وساطة فى أمر « يؤسفنى أننى غير قادر على أن أفعل ذلك ؛ فان معرفتى ضئيلة بأولئك الذين فى أيديهم القوة تناسب فى ضآلتها حرصى على أن ألزم بيتى فى الأكثر ، وإنى لأوثر أن ألزمه » .

وظل ملتن بعد موت كرمول فى منصبه يعينه فيه مساعد ، ولـكنه كما قلنا كان فيما يشبه العزلة فقلما شغله من ناحية منصبه عمل وإنه ليطيب بذلك نفساً لأنه يستطيع أن ينصرف اليوم إلى بقية شبابه ويعكف على تحقيق ذلك الحلم الذى انشغل عنه دهراً طويلا …

ومن عجيب أمره أن همه يومئذ لم يك منصرفاً إلى الشعر وحده على شدة ولوعه به وتحرقه إليه ؛ بل لقد كتب باللاتينية رسالة طويلة فى العقائد المسيحية ضمنها آراءه فى الله وفى غرضه من خلق الناس وفى أصل الوجود وفى الحياة والموت وفى خطيئة آدم وخروجه من الجنة ، وفى علاقة المرأة بالرجل ومنزلتها فى المجتمع وفى السياسة والدولة والحرية ، وفى مسائل القضاء والقدر وما يتصل بها …

ولـكن كتابه هذا لم يعثر عليه إلا سنة ١٨٢٣ أى بعد قرابة قرن ونصف من وفاته ، وقد عثر عليه مصادفة ضمن إضبارة من الورق كانت تحتوى كذلك على صور مراسلاته اللاتينية الرسمية التى كتبها وهو فى منصبه ؛ وليس يعرف على وجه اليقين متى بدأ كتابة هذه الرسالة ، وأكبر ظن المؤرخين أنه كتبها ما بين سنتى ١٦٥٥ ، ١٦٦٠ ، وكذلك لم يعرف غرضه من كتابتها ؛ ويرى بعض النقاد من تقسيمها وتبويبها أنه قصد بها أن تكون رسالة يدرسها الناشئون ، ويقرؤها غيرهم من المثقفين ويرى آخرون أنه ضمنها خلاصة فلسفته لتكون مرشداً وهادياً لمن يقرأ قصيدته الكبرى فأكثر آرائه فى القصيدة يتمشى مع ما ذكر فى رسالته اللاتينية ، وكلا العملين الفنى منهما وغير الفنى يلقى من الضوء على الآخر ما يكشف عن دقائقه ويوضح كثيراً من أسراره ، ولعل هذا هو غرضه الحقيقى من كتابة هذه الرسالة ، ولذلك نميل إلى أن نرجىء الكلام عنها حتى يأتى ذلك عند دراسة فلسفته فى قصيدته الكبرى ، ونكتفى الآن بأن نذكر أن ملتن اعتمد على الكتاب المقدس فيما أورد من آراء كما ذكر ذلك ، ولـكنه لم يتقيد بأقوال المؤولين والمفسرين قبله ، بل اعتمد على تأويله هو وتفسيره . فأتى بكثير من الآراء التى لا يتفق معه أحد فيها ؛ ويعنينا ذكر هـذا لأنه يدل على ناحية من نواحى شخصيته وهى حرية فكره ورغبته فى التخلص من كل قيد ، ولقد تجلت هذه النزعة فيـه من قبل أيام كان يجادل القساوسة وأيام كان يدافع عن الطلاق …

وما كان يظن أحد ممن حوله أنه سوف ينصرف عما أقبل

عليه من شعر ومن دراسة ؛ ولكنه ما لبث أن انصرف عنهما سنة ١٦٥٩ وعاد إلى كتيباته ! ففي أوائل تلك السنة قدم للبرلمان رسالة عنوانها : « حول السلطة المدنية في الأمور الدينية لبيان أنه ليس من المشروع لأية قوة على الأرض أن تتبع الإكراه في مسائل الدين » ؛ وأخذ يدافع عن الحرية الدينية ويعلن أشد سخطه على الاضطهاد الديني وإكراه الناس على غير مايعتقدون ، ولم يقتصر سخطه على غير البروتستنت ، بل شمل البروتستنت كذلك ، لأنه يمقت الاضطهاد والقهر أياً كان مصدره ؛ ومعنى ذلك أنه يجب أن يقبل أن تتاح الحرية للكاثوليك ، وإلا فكيف يحل لنفسه ما يحرم على غيره ويدعى مع ذلك أنه طالب حرية ؟ ولكنه يناقض نفسه في هذا الأمر فيحاول أن يفلت من التناقض فيأتي برأى عجيب عن الكاثوليكية ، فهي ليست ديناً ، ولكنها بقية باقية من حكومة روما ، وعلى ذلك فلا تسامح معها في انجلترة خوفاً على سلامة الدولة ، فما يضطهد الكاثوليك لمذهبهم ، وما عوقبوا من قبل لإلحاد أو زيغ ولكن لخيانة ؛ ومهما يقل ملتن فلن يستطيع أن ينفي عن نفسه ما يكرهه من غيره من اضطهاد وإكراه ؛ وألح ملتن في هذه الرسالة في مطالبة البرلمان بما طالب به كرمول من قبل ، وهو ألا تكون هناك كنيسة للدولة

ونشر في أغسطس من السنة نفسها كتيباً عنوانه « نظرات في أمثل الطرق لطرد المأجورين من الكنيسة » . وعنده أن أمثل هذه الطرق أن تتخلص الدولة من هؤلاء القساوسة جملة ؛ فإطعام هؤلاء يمكن أن يوكل إلى من يقومون على رعايتهم وهديهم ؛ وفي استطاعة القساوسة أن يجدوا لأنفسهم عملا آخر وذلك خير لهم ؛ وفي رأيه أنه ليس ثمة ضرورة لهؤلاء القساوسة ، وأن المال الذي يعطى للكنيسة يمكن إنفاقه في أوجه كثيرة هي خير مما ينفق فيه ، كأن تبنى مدارس وتنشأ مكتبات تلحق بهاتيك المدارس ، حيث يتعلم الناس اللغات والفنون بغير أجر تعلما شعبياً لا يعوقهم عن مزاولة أي عمل يكسبون منه أقواتهم فتستنير بصائرهم ويرتفع مستواهم الثقافي فتنتشر المدنية في أنحاء الدولة .

وينبغي ألا يذهب رجال الدين إلى الجامعات ، فما يتركون فيها إلا أسوأ الآثار ، فهم كطلاب يكونون في الأكثر ضيقي الأفق أغبياء وليسوا أحسن حالا وهم رجال ، وخلاصة القول إنه يجب أن تتخلص المسيحية من هؤلاء المأجورين لتتحقق لها السعادة ، فإن إفساد الدين على يد السلطة الزمنية يكون بإحدى وسيلتين القوة أو المال ، وإفساده بالمال أشد من إفساده بالقوة ، لأن القوة ممثلة في الاضطهاد قد تؤدى إلى ازدياد الاستمساك بالدين ، ومن ثم تمتد جذوره وتسمق فروعه ؛ أما المال فبه تشترى الضمائر وبه يستأجر الضعاف والجهلاء من المرشدين والقائمين على أمر الدين ، ومن هنا يكون التدهور والفساد الخفي

ولم يعد ملتن بطائل من وراء هاتين الصيحتين ، فقد كان البرلمان في شغل بما هو أخطر من المسائل الدينية ، فقد أخذت تصطرع الأهواء في عهد ريتشارد حامي الجمهورية الثاني ، وتزايدت الدعوة إلى إعادة الملكية ، وقل أنصار الجمهورية في البرلمان ، وعاد إلى البرسبتيريز شيء من قوتهم فرغبوا في الثأر من المستقلين وتفرق الناس على هذه الصورة شيعاً وأحزاباً ، فلا غلبة إلا لمن يثبت أنه أقوى جنداً أو أكثر نفراً

وكان يدرك ملتن أنه كمن يصرخ في واد قفر من أهله فلا سميع ولا مجيب ولا صدى لصوته ؛ ولكنه على الرغم من ذلك — كما يقول — مطمئن إلى أنه يفعل ما يجب عليه فعله وأن يفعله في وقته لا يبتغي إلا الخير لدينه ولوطنه

وإن المرء ليتملكه العجب من إصراره على هذا النحو ودأبه على محاربة رجال الدين ، لايدع فرصة ولايدركه سأم ؛ فها هو ذا يرسل عليهم سهامه في عهد ريتشارد مؤملا أن يجد عنده من القبول ما لم يجده عند أبيه ، ويميل بعض من كتبوا حياة ملتن إلى رد هذه الصرامة إلى حنقه عليهم وعلى الأخص البرسبتيريز لما نال من أذى على أيديهم ولأنهم أعلنوا طرده من الكنيسة ، ويرى غير هؤلاء أن مرد قسوته عليهم إلى عقيدة في نفسه لا يتحول عنها وهي أن تسلط رجال الدين مهما يكن مذهبهم على شؤون الدولة هو سبب كل طغيان وكل خنق للحرية ، ولما كان يكره الاستبداد من أعماق قلبه بقدر ما يحب الحرية فقد انصبت كراهته على هؤلاء الذين يرى فيهم رمز العناد الغبي ، والتسلط الأحمق ، وزاده إيذاؤهم إياه يقيناً بأنهم أصل كل شر ، وسبب كل رجعية لأنهم خاصموه من أجل مبادئه في الزواج والطلاق ، وهو لم يرد بهذه المبادئ إلا الخير للانسانية جميعاً ، وما ساوره شك في أن ما دعا إليه إنما هو الحق .

(يتبع) **الخفيف**

حول بيت لأبي نواس ... !

للأستاذ عباس حسان خضر

مات ابن الحجاج وأخوه في يوم واحد ، وكان اسم كل منهما محمداً ، فقال : « يا لله ! محمد ومحمد في يوم ! » فكرر محمداً ، ولو قال : « محمدان في يوم » لما أدى المعنى الذي أداه التكرار ، فأحد المحمدين ابنه والآخر أخوه ، وهو بالتكرار يفصّل الفاجعة فيهما ، وما تقوم التثنية بنقل هذا الشعور إلى السامع ، أو قل ما شئت في التعليل ، ولا أشك في أننا متفقون على حسن التكرار هنا ، وأن التثنية لا تغني شيئاً .

وقال أبو نواس :

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا ... بها أثر منهم جديد ودارس

مساحب من جر الزقاق على الثرى ... وأضغاث ريحان جنى ويابس

حبست بها صحبي فجددت عهدهم ... وإنى على أمثال تلك لحابس

ولم أدر من هم غير ماشهدت به ... بشرقي ساباط الديار البسابس

أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً ... ويوماً له يوم الترحل خامس

أفترى التكرار في البيت الأخير حسناً كذلك ، أم تراه معيباً لا غناء فيه ؟

وقع نظرى في كتاب « البلاغة الواضحة » لمؤلفيه الأستاذين على الجارم بك ومصطفى أمين بك على هذا البيت (أقمنا بها . الخ) مسبوقاً بهذه العبارة : « بيّن ما تراه في الأبيات الآتية من العيوب البلاغية » ومتلواً بأبيات أخرى[1] . تأملت هذا البيت المتهم بالعيوب البلاغية وهو ماثل في قفص التمرينات المطلوب حلها ... فلم أرَ به ما يريب ، ثم رجعت إلى نفسي وكدت أتهم عقلي بالقصور ، وتخيلت أني طالب أُلقي إليه بهذا السؤال في الامتحان ، فهالني الصفر الأحمر يسقط عليّ من قلم الممتحن المهيب ... ثم لمحت رقماً بين قوسين على آخر البيت ، فتبعته إلى الهامش حيث وجدت به : « يريد أنهم أقاموا ثمانية أيام ، عدّ منها ثلاثة في الشطر الأول ، ثم أضاف إليها خمسة في الشطر الثاني ، لأنه يقول إننا أقمنا بعد ثلاثة الأيام الأولى يوماً له يوم الرحيل خامس أي خمسة أيام أخرى » فذهب عني الفزع وقلت : وهذه مسألة أخرى أرى الخطأ فيها ظاهراً ، مما يطمعني في تبرئة البيت مما يراد لصقه به من العيوب البلاغية .

ويلحق بهذا الكتاب القيم — رغم ما نحن بسدده — كتاب اسمه « دليل البلاغة الواضحة » لنفس المؤلفين ، يشتمل على حل التمرينات التي تضمنها كتاب « البلاغة الواضحة » . فلا بد أن يكون به بيان « العيوب البلاغية » الموجهة إلى بيت أبي نواس ، وهناك رأيت « في هذا البيت تكرار غير مفيد ، فإن أبا نواس يريد أن يقول إننا أقمنا بها ثلاثة أيام : فكرر كلمة (يوماً) تكراراً معيباً لا غرض فيه ، ولا قصد منه ، والتكرار إذا لم يورث اللفظ حلاوة ، ولم يكسب المعنى طلاوة كان ضرباً من السخف والعيّ ، والعجب لأبي نواس يأتي بمثل هذا البيت السخيف الدال على العيّ الفاحش مع أبيات عجيبة الحسن تتقدم هذا البيت[1] » .

ووجدت بالهامش تعليقاً على ثمانية الأيام مايلي : « في المثل السائر أن أبا نواس يريد أن يقول إنهم أقاموا بها أربعة أيام » .

وفي كتاب « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » قال مؤلفه الشيخ ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الموصلي الشافعي في باب التكرير : « وعلى هذا الأسلوب (يشير إلى ما سماه التكرير في اللفظ والمعنى غير المفيد) ورد قول أبي نواس :

أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً ... ويوماً له يوم الترحل خامس

ومراده من ذلك أنهم أقاموا بها أربعة أيام ، ويا عجباً له يأتي بمثل هذا البيت السخيف الدال على العي الفاحش في ضمن تلك الأبيات العجيبة الحسن التي تقدم ذكرها في باب الإيجاز وهي : ودار ندامى عطلوها وأدلجوا ... » .

ولقد وددت لو وافق صاحبا « البلاغة الواضحة » مؤلف « المثل السائر » في عدد أيام الاقامة بدار الندامى ، وخالفاه في تهجين البيت ، ورميه بالسخف والعي ... ولكنهما عكسا ، فعارضاه في الأولى ، وأخذا بالثانية ، وإن كان أدق منهما في

(١) ص ٢٠٧

(١) ص ١٣٢

عجبه من وقوع هذا البيت فى ضمن أبيات عجيبة الحسن وعجبهما من وقوعه بعد أبيات عجيبة الحسن ، لأن الأبيات التالية له لا تقل حسناً إن لم تزد عن التى تتقدمه ، وها هى ذى :

تدور علينا الكأس فى عسجدية
حبتها بأنواع التصاوير فارس

قرارتها كسرى وفى جنباتها
مهاً تدّريه بالقسىّ الفوارس

فللخمر ما زرت عليه جيوبهم
وللماء ما دارت عليه القلانس

قال الجاحظ : نظرنا فى شعر القدماء والمحدثين ، فوجدنا المعانى نقلت ، ورأينا بعضنا يسرق من بعض إلا قول عنترة : « وخلا الذباب بها فليس ببارح » وقول أبى نواس : « قرارتها كسرى ... الخ » .

وأرجع إلى جادة البحث فأقول : إننى أخالف مؤلف المثل السائر وصاحبى البلاغة الواضحة فى الرواية على بيت أبى نواس ورميه بالتكرار المعيب ، وأخالف الأخيرَين فى أن أبا نواس وصحبه أقاموا بدار الندامى ثمانية أيام ؛ وأقدم الكلام على المسألة الثانية لأفرغ للأولى .

الشطر الأول : « أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً » يدل على ثلاثة أيام قطعاً ، أما الشطر الثانى « ويوماً له يوم الترحل خامس » فيقول صاحبا البلاغة الواضحة إنه يدل على خمسة أيام أخرى ، وإنى لأعجب كيف يقولان ذلك وهما معدودان فى الصف الأول من رجال اللغة العربية فى هذا العصر ، وهل يستقيم فى العربية أن تقول — على رسم ذلك — : أقمت يوماً فى الاسكندرية له يوم السفر خامس ؟! إنهما يعلمان أن صيغة (فاعل) من العدد لا تكون فى مثل هذا الاستعمال إلا مُصيِّرة ما تحتها بدرجة واحدة مساوياً للعدد الذى اشتقت منه ، أو دالة على بعض العدد الذى اشتقت منه ، فيقال خامس أربعة وخامس خمسة ، ولا يقال خامس واحد أو اثنين أو ثلاثة . وعلى هذا لا يدل قوله (ويوماً له يوم الترحل خامس) إلا على أن هذا اليوم هو الرابع ويوم الرحيل خامسه ؛ فالبيت يدل على أنهم أقاموا أربعة أيام وسافروا فى اليوم الخامس .

أما الحملة العنيفة التى حملها الشيخ ضياء الدين على التكرار الوارد فى بيت أبى نواس وتابعه فيها صاحبا البلاغة الواضحة ، إذ عدّوه تكراراً معيباً سخيفاً ، وعجبوا من الإتيان به فى ضمن أبيات عجيبة الحسن — فإنى أرد هذه الجملة عن البيت ، وأريح العاجبين من عجبهم الذى لا محل له ، لأن البيت نفسه عجيب الحسن كإخوته ، وما كان لأبى نواس — وهو أبو نواس وقد واتاه الإبداع فى سائر الأبيات — أن يسف هذا الإسفاف بحيث يكون كل ما يريد أن يؤديه بهذا البيت أنهم أقاموا بالدار أربعة أيام أو ثمانية ويرتكب لتأدية هذا المعنى التافه ذلك التكرار الذى لا غرض فيه ولا قصد منه !

إنما يقول أبو نواس إن هذه الدار التى غادرها أهلها مخلفين بها آثاراً تدل على ما كان لهم بها من لذات الشراب وطيب العيش عرجنا عليها لنجدد عهد الراحلين عنها ، فأقمنا بها يوماً كان العزم أن نرحل بعده ، ولكن طابت لنا الإقامة فكثنا يوماً آخر ، وحلا لنا التمادى فى التمتع بلذة الشراب بهذا المكان فلبثنا يوماً ثالثاً ، واستمرأنا الإقامة على هذه الحال فتراخينا يوماً رابعاً ، وفى اليوم الخامس اضطررنا إلى الرحيل .

فهل كان يمكن أن يؤدى هذا الشعور بغير ذلك التكرير ! وإن العائبين عليه ليريدون أن يقيموا من البيت جداراً مسموكا لا تنفذ منه أشعة ذلك الإحساس المعهود فى الحالات التى تستطيبها النفس وتتمنى دوامها . وأى تكرار يورث اللفظ حلاوة ، ويكسب المعنى طلاوة إن لم يكن هو هذا التكرار . . ؟

ولقد أتى أبو نواس بنوع آخر من التكرار إذ قال فى وصف صاحبته جنان :

والحسن فى كل عضو منها معاد مردَّد

فليس هذا تكرارا فى اللفظ ولا فى المعنى ، بل المكرر الجمال يرى معاداً مردداً فى كل عضو من أعضائها ، وهذا التكرار ليس كثله إلا (تكرير) السكر ...

ويجرنا حديث التكرار إلى بعض المفارقات العجيبة فى هذا الباب ، فبينما تجد نسقاً منه لم يدفع إليه إلا العى والحمق، إذا أنت ترى ما يشبه هذا النسق مقبولا مستساغاً

قال الجاحظ فى باب العى من « البيان والتبيين » :

« وتزعم بنو تميم أن صَبِيرة بن تيان قال فى حرب مسعود والأحنف : إن جاء حُتات جئت ، وإن جاء الأحنف جئت ، وإن جاء جارية[1] جئت ، وإن جاؤا جئنا ، وإن لم يجيئوا لم نجيء ! »

وأنت تعرف التكرير الذى أحلولى به أسلوب الدكتور طه حسين بك ، والعجيب أن نحواً منه يشبه الكلام المعزوّ إلى صبرة بن تيان . وهاك أمثلة من مقال له عن كتاب (نابليون) تأليف إميل لودفيج فى مجلة الكاتب المصرى الصادرة فى أول أكتوبر الحالى :

« ولست من المعجبين بإميل لودفيج وفنه إعجاباً شديداً . ومصدر هذا فى أكبر الظن أنى لم أقرأه فى نصه الألمانى ، ومصدر هذا فى أكبر الظن كذلك أن بين خياله الألمانى البعيد وتفكيره الألمانى الملتوى وبين خيالى القاصر وعقل العربى الذى يواجه الأشياء أكثر مما يدور حولها ، أمداً بعيداً ، ومصدر هذا فى أكبر الظن كذلك أنى حاولت أول ما حاولت أن أعرف لودفيج عن طريق كتابه عن حياة المسيح ، ومن طريق كتابه عن حياة جوت ، فلم أستطع أن أمضى فى الكتابين إلا قليلا ، ومصدر هذا آخر الأمر أنى لقيت لودفيج فى القاهرة حين زار مصر مهنئاً لإنشاء كتابه عن النيل ، فلم أحمد لقاءه ولم يحمد لقائى » ، وفى نفس المقال : « يظهرنا لودفيج على هذا كله وعلى أكثر جداً من هذا كله ، فى هذا الكتاب الذى لم يخلص للتاريخ ولم يخلص للقصص ، وإنما كان مزاجاً منهما » .

على أن بعض الناس لا يرتضون هذا التكرار الذى تشتمل عليه كتابة الدكتور طه حسين بك ، وغيرهم يعجبون به ، ويعدونه حلواً طلياً .

عباس حسان خضر

(١) حتات والأحنف وجارية أعلام رجال .

لا أدرى ...

للأستاذ حسين الغنام

أسائل شاطئَ البحر
وأسأل نجمة الفجر :
إلى مَ يلجّ فى الهجر
ويُمعن ساحرى نأيا ؟
وضاق بنأيه صبرى
فقالت ، وهى لا تدرى

وعدت أسائلُ البحرا
ورحتُ أخاطبُ البدرا
هناك ، بمهجةٍ حَرَّى :
ألم ترَيا هنا ظبيا
أغنَّ وفتنةً كبرى ؟
فقالا : نحن لا ندرى

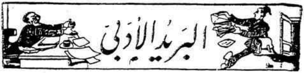
وقال البحر فى إرغاءْ
لكم مرّتْ علىَّ ظباءْ
وقال البدرُ فى خُيَلاءْ :
وإنى لستُ معنيا
فكم مرت هنا حسناءْ
فمن فيهن ؟ لا أدرى

وقال البدرُ فى عتْبى
إليكَ عرائسَ الحبّ
فشِمْ فيهن من تُصبى
هواك ، أمهد اللقيا
يظلى الوارفِ الرحبِ
تكلمْ ! قلت : لا أدرى

فطَنِّبى ، إنه حسبى
لقد أسكنتهُ قلبى
وكم من ريقه العذب
نهلت ، ولم أجد رِيًّا
سواه لقلبى الصَّبّ
فأين ؟ فقال لا أدرى !

وسرت أسائل الليلاَ
ومرَّ الليلُ وانسلاَّ
فعدت أسائل الطَّلاَّ
وظلْتُ أسائل الدنيا
لأيةِ بقمةٍ ولى
غزالى الحلوُ ، لا أدرى !

(المندرة — الرمل) **حسين الغنام**



حرية الكتابة :

اطلعت على مجلة « الرسالة » عدد ٦٩٢ فقرات فيها موضوعا عنوانه « مقالات فى كلمات : للاستاذ على الطنطاوى » لفت نظرى فيه فقرة حول «حرية الكتابة» تعرض فيها إلى موضوع نشر فى مجلة « الثقافة » الغراء التى تصدر فى دير الزور عن « الموازنة بين الأدب العربى والأدب الفرنسى » ، وقد أسعدنى الحظ أنى أنا أيضاً اطلعت على الموضوع نفسه فى المجلة نفسها فاذا هو لا يخرج عن كونه مقارنة تحليلية طيبة من الأديبين ، حاول فيها الكاتب أن يكون باحثاً موضوعياً جهد المستطاع . فاستغربت جد الاستغراب أن يتجاوز السيد على الطنطاوى حدود النقد النزيه القائم على المناقشة العلمية الهادئة التى لا علاقة لها بالعاطفة والمزاج الشخصى .

يذكر الناقد فكرة (السكون والحركة) التى وردت فى المقال ، ويعلق عليها بأنه لم يفهم منها شيئاً . ولو رجع — حفظه الله — إلى فلسفة اليونان لوجد أن فكرة السكون والحركة قد لعبت دوراً كبيراً من المدرسة « الأيلية » إلى مدرسة « هرقليط » على أن فكرة السكون ليست مأخذاً على الأدب العربى ، فالطمأنينة النفسية هى غاية ما يتوخاه المؤمن المتعبد ، بدليل الآية الكريمة « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك ... » .

أما حملته على «حرية الكتابة» فنحن نرفضها جملة وتفصيلا فانما تحت ظلالها الوارف أينعت المدنية الإسلامية ، كما أينعت المدنيات القديمة والحديثة من العهد اليونانى إلى العصر الحديث . وإذا كنا نفخر بشىء فانما نفخر بحرية الكلام وحرية الفكر وحرية الكتابة التى شع نورها فى بغداد والقاهرة ودمشق ، والتى أثمرت تلك العلوم والفنون التى لا نزال نتغنى بها فيما نتغنى بأمجاد الماضى والتهمة التى ألصقت بنا فى حرق مكتبة الاسكندرية قد نجمت عن ضيق بعض العقول التى كانت تتصور فى وهمها بأن العرب أعداء الفكر والعلم والأدب الأجنبى . فلم تنشأ البذرة الأولى للعلوم فى العهد العباسى إلا بعد أن أدرك العرب أن عند غيرهم من الأمم علوماً وفلسفة يجب أن يطلعوا عليها وأن يتأثروا بها .

« لا إكراه فى الدين » ، هذا هو المذهب العربى الصميم .

فليس من الضرورى أن توافق الآراء بعضها بعضاً ، ولا أود أن أبدى رأيى الشخصى فى الموضوع ، مادام الناقد الطنطاوى لم يراع فى نقده مبادىء النقد الأولية . فله رأيه إذا كان مخالفاً لصاحب المقال ، شريطة مع ذلك أن يكون جارياً على أصول المنطق والذوق والتهذيب ، وعدم مزج المهاترة والألفاظ النابية فى البحث العلمى ، وإنى مثلا لا أفهم ما هو مكان النزعة السياسية فى النقد الأدبى ! ...

ويدخل فى هذا الباب أيضاً مزج الأخلاق بالأدب ، فليس غرض الكاتب صاحب المقال فى « الثقافة » أن يدعو إلى الأباحية ... وقد عرفناه فى جميع ما يكتب بعيداً عنها بعد الأرض عن السماء ، فهو لا يبتغى كما يوحى مقاله إلا بيان خصائص الأدبين العربى والفرنسى ، على حسب ما وصل إليه جهده ونزاهته ، فان لم يصب المرمى على رأى الناقد ، فحسبه أن اجتهد « والمجتهد أجره وإن أخطأ » .

أما قولك يا سيد على بأن الكاتب لا أخوات له ولا بنات ، فلا ينطبق على الحقيقة ، ولا دخل له فى موضوع النقد الأدبى . أما إذا كان فى النية بيان تأثير الأدب فى الأخلاق ، وما ينجم عن ذلك من فضائل ورذائل ، فلذلك طريقة خاصة فى البحث غير الطريقة التى سلكتها ...

وأختم كلمتى بالرجاء إلى السيد على الطنطاوى أن يتقبل ملاحظاتى المتواضعة بصدر رحب ، كما أنى أرجو جميع الناقدين أن يلتزموا حدود البحث العلمى ، والحيادية ، والتجرد عن النزعات الشخصية ، وعن الطعن البعيد عن الروح الموضوعية ، كى تثمر مناقشاتنا الثمرات المؤملة ، والسلام .

(حلب) الدكتور محمد يحيى الهاشمى

من أساليب النقد عندنا :

إن القارىء المنصف ليأخذه العجب حين يطالع تلك الفصول التي يكتبها النقاد المحدثون ؛ فأكثرها يمليه الهوى ، ولا يصدر عن رأي خالص لوجه الحق ، ولا سيما ما يكتب مقدمات لكتب المؤلفين ، ودواوين الشعراء ، ولكن العجب الذي لا يكاد ينتهي ما يلاحقك حين تقرأ لناقد واحد لكتاب واحد في أسبوع واحد كتابين متناقضين .

كتاب « نفحات من سيرة السيدة زينب » وضعه الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصي ونقده الأستاذ كامل السيد شاهين في مجلة « الرسالة » بتاريخ ١٢ من ذي القعدة سنة ١٣٦٥ ، وفي مجلة الإسلام بتاريخ ١٦ من الشهر نفسه فبين الكلمتين أربعة أيام فقط ، ولكن هذه المدة القصيرة غيرت رأي الناقد ، ولو كانت إحدى المجلتين تصدر في أمريكا أو في الصين ، ولو كان بين النقدين زمن طويل لالتمسنا للناقد عذراً ، ولا يمكن أن يحمل كلامه في « الرسالة » إلا على أنه مجاملة لزميله وصديقه ، ولكن كان يجب أن يفهم أن « الرسالة » ومثيلاتها من المجلات التي تكتب للخاصة ليست موضعاً للمجاملات .

وانسق جملة من كلتا الكلمتين ليعرف القارىء إلى أي مدى تكون المجاملة . في مقال الرسالة ص ١١٢٢ « والكتاب بعد ذلك عرض تاريخي أنيق لحياة هذه السيدة الكريمة . فللوعاظ والمرشدين والمؤرخين المعنيين بتحقيق الشخصيات الاسلامية البارزة لهؤلاء جميعاً وضع هذا الكتاب جامعاً بين دقة البحث وطلاوة الأدب ... الخ » . فالكتاب إذن للمؤرخين الذين يعنيهم التحقيق والتدقيق وصاحبه قد بذل فيه جهداً جباراً حتى جاء دقيق البحث ، فما باله يصبح في مجلة الاسلام عارياً عن التحقيق جامعاً بين الغث والثمين والطم والرم ، حتى في أخص ما يجب فيه التحقيق وهو تأويل آيات الله الكريمة قال الناقد ص ١٨ « نحا المؤلف في تأويل الآيات القرآنية منحى شيعياً ، وذلك يذكرنا بشر ما يقع فيه إنسان أن يكون كتاب الله الكريم خاضعاً في تأويله لمجاري الأهواء ، وقد انساق كثير من المفسرين في هذا التيار عن غفلة وثقة بمن يأخذون عنهم ، وما كنا نحب من المؤلف أن يأخذ مما قاله الرواة والمفسرون بدون تحقيق ولا تمحيص » . وإذا كان في هذه الفقرات يعيب على صاحبه عدم التحقيق في تفسير الآيات القرآنية ، فهو في موضع آخر يعيب عليه عدم التحقيق في الروايات التاريخية وهي ما قام الكتاب عليها ، فلا مندوحة لمن يقرأ كلامه أن يعتقد أن المؤلف لم يحقق ولم يدقق في أصول كتابه أو فروعه . قال الناقد في مجلة الاسلام ص ١٨ أيضاً « وآخر ما أذكر به المؤلف أن يراجع ما كتب ، ولا يأخذ من أفواه المؤرخين والمفسرين أخذاً لينظر فيما قيل ويعرضه على شك عقله ، وحقيقة دينه ، فأما أن يجمع بين الغث والسمين فذلك غير ما نأمل فيه » ، وقد تلفت القارئ هذه الكلمة من الناقد « وحقيقة دينه » ولا عجب فان الناقد يرى المؤلف بعيداً عن روح الاسلام في بعض ما كتب ، قال بعد أن ذكر تأويل المؤلف لآيتين من كتاب الله ، وذكر هو تفسيرهما : « هذه هي روح الاسلام الصحيح ولا ينبغي أن يبعد عنها رجل يبتغي بعلمه وجه الله ورسوله ، فإن كنت يا سيدي تؤمن بأن الله اصطفى طائفة من نور ، وجعل طائفة من نجس فذلك عن روح الاسلام بمعزل » .

والناقد يشير بقوله : « ولا ينبغي أن يبعد ... الخ » أن المؤلف قصد بما ساقه عن آل البيت تملق العامة وابتغاء ما عندهم ثم ترى أن الأستاذ شاهين يذكر لصاحبه في مجلة « الرسالة » أنه تناول الترية الشعبية « بروح جديدة هي روح عالم النفس الحاذق » ، ولكنه في مجلة الاسلام يقول : « ولا أنسى أن ألوم المؤلف على أنه ذكر أن النساء لطمن خدودهن عقب مصرع الحسين ، فان هذا الكتاب للعامة ولا يصح أن تساق هذه الأشياء وأمثالها فيتخذها العامة ذريعة لاستحلال ما حرم الله . والحرام حرام مهما كانت مكانة فاعله ومنزلته » .

(وبعد) فان القارئ يتبين بما نقلته مدى التناقض بين كلامي الناقد ، وأنه بصنيعه هذا في المجلتين ، وما ساقه امتداحاً لصاحبه ثم ما عقب به من هذا النقد الذي يهدم كل ما بناه ليذكرنا بما قاله المرحوم شوقي بك على لسان أحد أبطال روايته مجنون ليلى يخاطب منازلا غريم قيس في حب ليلى :

منازِ يابن العم ما هذا الخبر ... رفعت قيساً فجعلته القمر
والآن أغريت بقتله الزمر ... كفعل جزار اليهود بالبقر
برأها من العيوب وعقر

أما رأيي فخلاصته أن المؤلف — على ما نمهد فيه من علم وفضل — كان في هذا الكتاب حاطب ليل ، وأنه استهدف لنقد عنيف محق وأمكن الرامي من صفاء الثغرة كما يقول العرب في أمثالهم .

علي العماري

إلى الأستاذ الجليل محمد إسعاف النشاشيبي :

ذكرتم في النقلة ٦٩٧ قصة عن محمد بن الحسين اللخمي وتلميذه ، وفي ختامها هذه الأبيات :

رب ما أقبح عندي عاشقاً مستهاماً يتفقاً سمنا
قلت من ذاك ؟ أنا ؟ فاستضحكت
ثم قالت : من تراه ؟ فأنا
قلت زوريني فقالت عجباً أنا والله إذن قاري مني
إذ يصلي وعليه زيتهم أنت تهواني وآتيك أنا ؟

فمن هو قارئ منى الذي يصلي بالناس وزيتهم عليه ؟ وهل هذه القصة حقيقية ؟

(البصرة) محمد حسين اسماعيل

في إرشاد الأريب :

كنت أراجع مقالات الأستاذ إسعاف النشاشيبي في إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب فعرض لي في العدد (٦٥٥) من « الرسالة » الغراء ما أردت إثباته ، وبالله العون .

جاء في إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ج ٩ ص ٨ :

فكتب إليه المهلبي : وصل كتابك يا أخي ... المتضمن نفيس الجواهر من بحار الخواطر ، الحاوي ثمار الصفاء من منبت الوفاء وفهمته ، ووقع ما أهديته من نظم ونثر ... موقع الري من ذي الغلة ، والشفاء من ذي العلة ، والفوز من ذي الخيبة ، و « الأدب » من ذي الغيبة ، وجاء في الشرح : الأدب التأديب .

ورأى العلامة النشاشيبي في تحقيقاته أن المهلبي قال : (والنغم من ذي الغيبة) ويعزى إلى امرئ القيس :

لقد طوفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

وأظن أن الصواب هو (والأوب من ذي الغيبة) والبيت الذي أورده الأستاذ لامرئ القيس دليل بظاهر ما أوردته في سياق المعنى المراد .

هذا ، وفي الختام إلى أستاذنا المحقق تحياتي ، والسلام .

(الزيتون) عزنان أسعد

أبو شاس ليس هو أبا نواس :

رأى الأستاذ شكري محمود أحمد في « الرسالة » الغراء (٦٨٨) أن أبا شاس الشاعر هو أبو نواس نفسه وإنما صحفه النساخ ، وقد أيد رأيه بأبيات منسوبة لأبي شاس وهي موجودة في ديوان أبي نواس .

وإني أقول للأستاذ إن لفظة أبو شاس قد وردت لعلمين من أعلام الأدب العربي كما في معجم الشعراء للمرزباني وهما أبو شاس التميمي وأبو شاس الطبري .

فأما التصحيف الذي ذكره الأستاذ فلا يمكن أن يقع على مثل هذه الكلمات لبعد الشبه بينها .

وأما الأبيات التي استشهد بها فيمكن أن تكون لأبي نواس وإنما وجدت منسوخة عند أبي شاس من غير أن تعزى إلى أحد فظنها من وجدها عنده أنها له فأذاعها بين الناس باسمه فنسبت له .

كما أن أبا نواس لم ينفرد بهذه الكنية بل هناك أبو نواس آخر هو أبو السري[1] سهل بن يعقوب المكنى بأبي نواس قيل إنما كني بذلك لأنه كان يظهر التطيب والتخالع مع الناس فسمى أبو نواس لتخالعه وقد كان محدثاً فقيهاً .

(كربلاء) م . ع . ك

رجاء :

لاحظت أن كثيراً من الأدباء ينشرون المقالة في « الرسالة » ثم بعد ذلك ينشرونها في الثقافة ، ومن هؤلاء العلامة الدكتور محمد البهي في مقالة (الدين الصناعي) ، والأستاذ الشاعر محمد رجب البيومي في قصيدة (مقبرة ريفية) والأديب الفاضل أحمد عبد المجيد الغزالي في مقاله (الصراصير) ... ومن المعلوم أن قراء « الرسالة » في الغالب — هم قراء الثقافة فما الداعي إلى ذلك ؟ مع أننا معشر القراء — نريد الطريف الجديد لا المكرر المعاد !! ...

سعاد كامل

---

(١) ذكره المامقاني في الجزء الثاني من رجاله عدد ٥٠٤٠ وكذلك ذكره غيره كأبي علي في رجاله والقمي في كناه وألقابه



القافلة الضالة ...

تأليف الأستاذ محمود كامل المحامى

[منشورات دار الجامعة]

للأستاذ شاكر خصباك

للأستاذ محمود كامل المحامى باع طويل فى القصة القصيرة ، فقد أخرج منذ أن اقتحم هذا الميدان حتى الآن ما يقارب الخمسة عشر مؤلفاً ، ضمت بين دفتيها عشرات الأقاصيص والقصص . هذا عدا الروايات الطويلة والقصص المسرحية التى احتوتها ثمانية مؤلفات . فكتابه « القافلة الضالة » إذن ليس أول محاولة قصصية يقوم بها ، وفى هذه الحالة يترتب علينا عدم الإغضاء عن أى ضعف فى أسلوب أقاصيصه الحديثة ، أو تشويش فى حوادثها ، أو ركاكة فى لغتها . إذ لو وقع فى مثل هذه الأغلاط التى تفقد القصة بعض مميزاتها الفنية قصاص مبتدئ لتسامحنا معه بعض المسامحة . أما والأستاذ محمود كامل قصاص قديم فسنلجأ إلى التشدد والصرامة فى محاسبته على ما اعتور مؤلفه من أغلاط فنية كثيرة .

— ١ —

فلنتصفح الكتاب ولنتناول قصصه قصة قصة ؛ فقد افتتحه بقصة « موسيقار الطريق »

وملخصها : (أن نادية — وهى مدرسة للموسيقى فى إحدى المدارس الثانوية — سافرت فى الصيف إلى (عتاقة) ، فأحبت هناك موسيقاراً شاباً وأحبها ، وتوثقت بينهما عرى الصداقة ، وقويت أواصر الود ، ولكن ما كادت تمضى على اجتماعاتهما ثلاثة أيام حتى فرت نادية عائدة إلى القاهرة . لماذا ؟ ! لأنها خشيت أن يتمكن حب هذا الموسيقار فى قلبها ، فى حين أنه قد يكون شاباً من هؤلاء الشباب الذين يقضون فترة خاطفة من الوقت على شاطئ البحر ليقتنص أثناءها فتاة من المصادفات يخدعها ويلهب عاطفتها ، ثم يفترق عنها ولا يعود يسعى إليها أو يسمع بها كأن أحداً لم ير الآخر ! !

غير أن هذا الموسيقار تبعها إلى القاهرة وهو لا يعرف من عنوانها غير الشارع الذى تسكن فيه ، فلجأ إلى أسلوب غريب (وغريب جداً) فى البحث عنها : وهو أن يحمل أكورديونه ويجوب فى ذلك الشارع ليلا متغنياً بقطعة غنائية كان قد غناها لها آخر مرة . واستمر على ذلك بضع ليال دون أن يبالى بصحو الجو أو اكفهراره ، حتى أن الماء كان يتساقط من كتفيه فى بعض تلك الليالى الماطرة . وأخيراً شاءت له المصادفة أن يعثر عليها فتم بينهما الزواج »

وهكذا تنتهى من القصة ! !

وبعد ، فهل سمعت من قبل أو من بعد أن محباً حمل آلته الموسيقية وانطلق يجوب بها الشارع الذى تسكن فيه حبيبته ، وهو يغنى ويعزف كيما يستجلب انتباهها ؟ ! قد تكون سمعت بمثل هذا فى أقاصيص المجاز الخيالية البعيدة عن الواقع ، أو فى أقاصيص بعض القصاصين الكلاسكيين أمثال شيكسبير وبوكاتشيو وسرفانتيس . وأما أن تقرأه فى كتاب قصصى لمؤلف مصرى معاصر ؛ يقول فى مقدمة كتابه إن : « أقاصيصه عبارة عن مجموعة صور منتزعة من الحياة الاجتماعية المصرية » . فالحق معك إن استغربت من ذلك وأغرقت فى استغرابك . إذ أن مثل هذا التصرف الشاذ بالنسبة لعادات وحياة المجتمع المصرى بعيد عن الوقوع كل البعد . وبما أننا نعنى بـ (الصور الاجتماعية) الحوادث التى يتكرر وقوعها حتى تصبح من سمات المجتمع ؛ فهذه القصة إذن قد فقدت طابعها الفنى — باعتبارها قصة اجتماعية واقعية — ببعدها عن الحقيقة وإغراقها فى الخيال ، وأقصد ببعدها عن الحقيقة عدم واقعية تكرر حدوثها فى المجتمع المصرى ذاته ، ولا علينا أن يحدث لأحدهم أن يحمل أكورديونه ويعزف عليه ويغنى وهو يجوس فى ظلمات الليالى فى الشارع الذى تسكن فيه حبيبته فى بلاد أخرى أو لا يحدث ما دامت القصة مصرية وليست أجنبية !

ويكفى هذا السبب للحكم على هذه القصة بالفشل ، لأن

تجوال صاحبنا جمال فى شارع يلبغا بشبرا وغناءه وعزفه كما تسمعه حبيبته نادية وتخرج له . حادث رئيسى فى القصة ترتكز عليه حوادث مهمة ونتائج خطيرة . ومن هنا أطلق المؤلف عليها اسم « موسيقار الطريق » . ولما كان هذا الحادث فاشل — لافتقاره إلى الصدق والواقع — فإن ما ارتكز عليه من حوادث ونتائج فاشلة بالطبع ، فالقصة فاشلة إذن

— ٢ —

ونفرغ من القصة الأولى فنتناول القصة الثانية وهى « رسائل حب » . وفى ظنى أنك لو قرأت يا عزيزى القارئ هذه القصة لما خرجت منها بشىء . وهذا ما حدث لى بالضبط عند قراءتها فاستمع الآن إلى ملخصها علك تجد شيئاً من الصحة فيما ذكرت :

« ممدوح صادق طالب فى كلية الهندسة : سافر مع أسرته فى الصيف إلى الأسكندرية ، فالتقى هناك بسنية فى أحد الملاهى ، وكانت هذه فى صغرها تسكن فى نفس الشارع الذى تسكن فيه أسرته ، لكن والدها التاجر أفلس أخيراً فانتقل إلى حى آخر ، ولم ير سنية منذ ذلك اليوم ، فلما رآها الآن تملكه شعور قوى جذبه إليها ، واضطر إزاء ذلك الشعور أن يتعرف إليها ، ثم جلسا حول مائدة يتحدثان عن الماضى والحاضر ، فعلم أنها قد أصبحت ممثلة ، وعلمت أنه طالب فى كلية الهندسة ، ومن ثم اتفق معها على أن يبعث لها برسائل غرام عند ما تعود إلى القاهرة ، وذلك لأن أحد ناشرى الكتب أوصاه أن يكتب رسائل غرام حقيقية لينشرها له — وهنا يجدر بى أن أشير إلى أن لممدوح صادق ميلا إلى القصة ، وقد نشر فى بعض المجلات أقاصيص قصيرة — ولكنه لم يوف بوعده بعدئذ ، بل كتب الرسائل واحتفظ بها لنفسه عملا بوصية الناشر .

ومضت الأيام سراعاً ، وإذا بخطاب يصله من سنية ذات يوم تبلغه فيه أن رسالته الغرامية التى بعث بها إليها مدهشة جداً جداً ، وأنها حازت إعجابها ، وأنها تأمل أن تراه قريباً . فدهش لأنه لم يبعث لها بأية رسالة ، وظل فريسة للقلق والاضطراب إلى أن عاد إلى القاهرة مع أسرته . فسأل عن سنية وعلم أنها سافرت إلى إحدى قرى الريف لتصوير مناظر فلم جديد .

وقصد ذات يوم إلى حلاق قريب من داره ، فبدأ صبى الحلاق يؤدى عمله ، وفتح الدرج الذى أمامه ليخرج (المسن) الجلدى ، فلمح ممدوح صورة لسنية مقتطعة من صحيفة من الصحف ومحاطة بإطار رشيق ، وسأل الصبى عن اسمه ولقبه ، فإذا هو « ممدوح أسعد » . وسأله عن علاقته بسنية فأخبره أنه رآها مرة فى حياته فأعجب بها أشد الإعجاب . وقد بحث عن صورتها طويلا فعثر عليها فى إحدى الصحف واقتطعها منها ، وأنه يكتب لها كلما شاء أن يفضى إليها بشىء . وأخبره أيضاً أنه أديب يكتب فى المجلات بعض القصص والأزجال !

. . ومضت أيام على اجتماعه بذلك الصبى ، وإذا ببرقية من بور سعيد تصله من سنية : تطلب منه فيها أن يوافيها إلى محطة القطار . وبعد تردد طويل أجاب طلبها . وما كاد القطار يبلغ المحطة حتى قفزت سنية من العربة وتعلقت به ، وانطلقت تطرى مقدرته الأدبية ، ثم قدمت له مجموعة من الرسائل الأنيقة (الزرقاء) التى كانت موقعة بتوقيع (ممدوح أسعد) . ثم سألته عن سر هذا التبدل فى اسمه ، فأخبرها أن « ممدوح صادق » الاسم الذى يعرف به فى المدرسة ، و « ممدوح أسعد » اسمه الحقيقى ، والذى يعرف به فى عالم الأدب

وبعد المقابلة عاد إلى المنزل مهدم الأعصاب وقد فهم السر . وفتح الدرج الذى اعتاد أن يحفظ به رسائله التى كتبها لسنية ، وانطلق يتلوها فى خيبة أمل ومرارة ، وقبل أن يتم تلاوتها سمع صراخاً وصوت احتشاد أقدام فى الشارع . فلما استطلع الخبر علم أن الترام قد قتل الصبى ممدوح أسعد الحلاق . فاستغل هذا الحدث لصالحه ومزق رسائله وألقاها فى الموقد ، وذهب برسائل ممدوح أسعد إلى مجلة معروفة نشرتها له فى أعداد متسلسلة . وبعد بضعة أسابيع قرأ فى نفس المجلة خبراً يتعلق بسنية التى كانت قد سافرت مع فرقة تمثيلية إلى مراكش وفاس مفاده أنها تزوجت بأحد تجار الجلود فى فاس ، وأنها اعتزلت التمثيل . ومنذ ذلك اليوم لم تعد إلى مصر ، ولم يسمع عنها ممدوح شيئاً »

(البقية فى العدد القادم)

شاكر خصباك